رواية تقرأ الجسد

حمام نساء في أور

نعيم عبد مهلهل

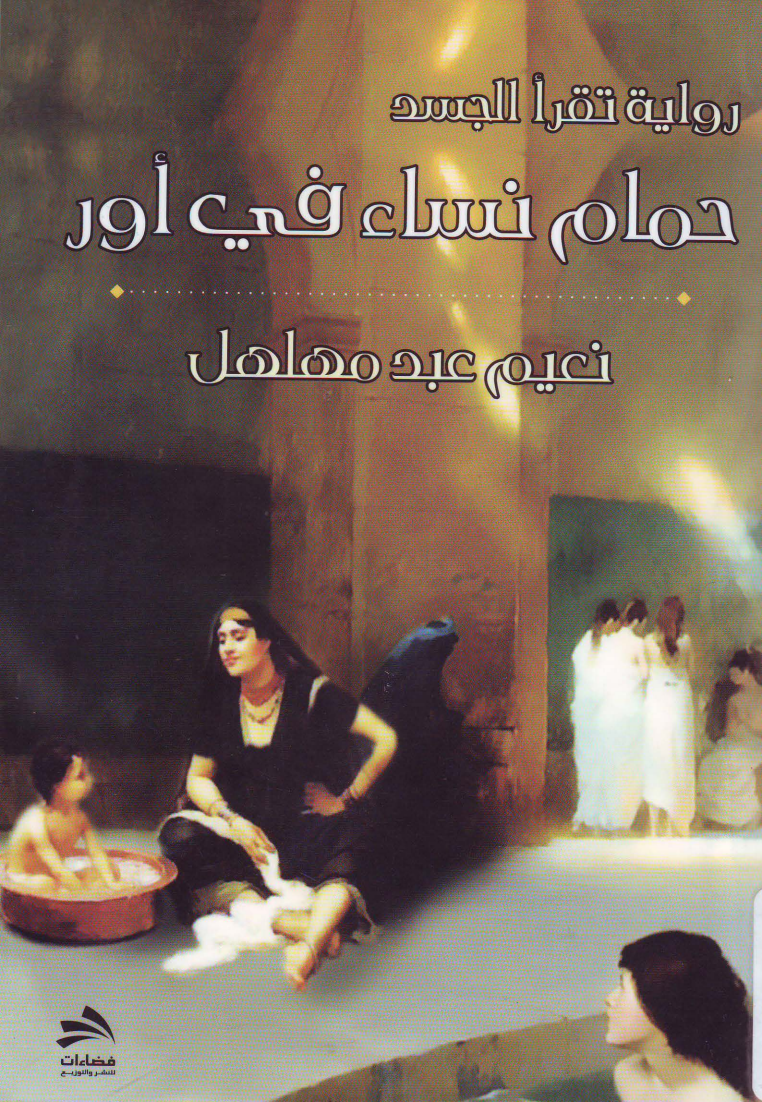

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى- ٢٠٠٩
ر.أ: ٢٠٠٩/٣/١٠٤٧
المؤلف: نعيم عبد مهلهل - العراق
iSBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٣٠-٠٨٢-١

دار فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة

عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران

تلفاكس: ٤٦٥٠٨٨٥(٦- ٩٦٢+) هاتف جوال: ٠٧٧٧/٩١١٤٣١

ص.ب٩٢٥٨٤٦. عمان ١١١٩٠ الأردن

Dar_fadaat@yahoo.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

رواية تقرأ الجسد

نعيم عبد مهلهل

حمام نساء في أور

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الى نساء مدينة ا ور ..

عاشقات القمر وغرام القيثارات ..والرافضات ابدا لثمالة السيف والدبابة وخوذة الاجنبي ..

لكن اهدي ذكريات اواني حمامات مدينتي وثرثرة العصافير في طقس الاستحمام ..هناك كان لنا وطنا سومريا، لايمنح الغزاة حليب الثداءه حتى ولو على قص الرقبة !..

لكن حدث الذي حدث ..والابقى هو ما تنجبن من اجيال صالحة ..

نعيم عبد مهلهل

زولنكن / المانيا

حمام نساء في أور

عبد الستار ناصر

أيقنت أن الرواية العراقية لم تزل بخير وانأ اقرأ (حمام نساء في أور) آخر ماابدعه الكاتب العراقي نعيم عبد مهلهل, حيث يتماهى الحاضر في روح الماضي, سبعة آلاف سنة مسبوكة على هيئة أساطير قديمة وحمامات ملوك وقلاع حصينة ونساء يعزفن على قيثارات مازالت في بطون المتاحف.

بطل الرواية سلمان, هو الشاهد على ماجرى في سومر وفي الوقت نفسه على ماجرى في حمام (أبو ليرة) منذ أخذته أمه إلى هناك وكان في الرابعة من عمره, أول مرة يرى فيها الأنوثة تستحم بالماء والصابون والغنج, أول مرة تسقط فيها البراءة.

هناك على مقربة من آلاف السنين, يستحم السلطان احمد في حمام (صاغ لوبكداش) ويصغي سلمان إلى صوت أمه يقول: عد إلى مكانك ياولد,لكن آلة الزمن تأخذه ويأخذنا معه إلى الملوك والكهنة وأميرات أزمنة تتكرر مع (ياكوموجي) في طوكيو و(كاترين دالاس) من جامعة بنسلفانيا , بينما وداد السومرية مازالت تصرخ به ان ياخذها اين يشاء, شرط أن تكون وحدها دون أي امرأة تشاركها الفراش الطائر.

الرواية تحكي عن المطمور من تأريخ بلاد مابين النهرين وقد اخذ المؤلف فكرة الحمامات, عالم الغرائز المكبوتة التي تبحث عن مفتاح ينفع مع أقفالها, عالم المرأة المغلوب على أمرها,مع المرأة التي لا تغلب, مع المرأة التي تخاف من جسدها أن ينقلب عليها ويأخذ زمام الأمور في أن يفعل مايشاء ليكون بعد ذلك خارج السيطرة.

الحمام, الصورة الممنوعة وراء الحيطان الذكورية, هي نفسها الصورة المفضوحة برغم التكتم عليها, صورة حواء في أول يوم نزلت فيه إلى الأرض, صورة (الخالة)التي اغتصبها طفل(ماريو بارغاس يوسا) في مديحه لها,صورة مارلين مونرو وبريجيت باردو و هند رستم وصوفيا لورين التي كنا نراها على دكة الطفولة وفي أول الصبا, صورة الرعشة والقشعريرة عندما تغلق الباب على طفل سينام في أحضان امرأة في أول لحظة سيغادر فيها البراءة.

هذه الرواية على قلة صفحاتها, لاادري كيف تسنى لمؤلفها أن يذكر فيها كل تلك الأسماء التي حضرت بين سطورها, والتي جاء فيها على السلطان رشاد والأميرة شبعاد وليوناردو وولي(مكتشف مقبرة أور) وأجاثا كريستي وزوجها ماكس مالوان,وكيف تعمد أن يأتي على ذكر جلجامش وناديا لطفي ومارلين مونرو وهند رستم جنبا إلى جنب مع عبدالكريم قاسم وزهور حسين وسليمة مراد وصوفيا لورين أيضا, بل يذكر في طريقه الجنرال مود ونابليون ورامبو وفكتورهيجو ودافنشي وعلي

الشوك وكاترين دينوف والرسام الشهير يوجين ديلاكروا بل يأتي على ذكر الإمام علي والحسين وجيفارا وشكسبير والمتنبي وكافور وجيسيكا لانغ وسلفستر ستالون حتى يصل إلى والت ويتمان وشارون ستون والفس بريسلي وسقراط وايزنهاور وليوناردو دي كابريو الذي أخطأ في كتابة اسمه . ثم يمضي بنا في آخر الرواية إلى بابلو نيرودا وأسامة بن لادن وكافافيس ويوليسيس وهارون الرشيد وشارلمان، ناهيك عن المدن التي يحكي عنها في تلك الرحلة الغرائبية من بغداد والناصرية وبابل وبنجوين ونينوى الى باريس ومانهاتن ونياكازاكي وهيروشيما ومارسيليا وأطلنطا وفلسطين رجوعا إلى أور واريدو ولكش وايثاكا واستانبول، دون ان تخسر الرواية شيئا من معناها وشاعريتها،ذلك ان تلك الأسماء جاءت أشبه بالزخرفة على لوحة مرسومة منذ مئات السنين، وربما لوحة مؤطرة بالليزر ممنوع تصويرها بالكاميرا . كماهو الحال مع الموناليزا في متحف اللوفر.

أزمنة مكثفة ومختصرة في بقايا آثار عثرت عليها كاترين دالاس وزوجها القادم من وراء البحارو المحيطات بحثا عن أسرار سومر وخبايا القصور التي انسحقت تحت التربة كما انسحقت اطلنطا بفعل ذلك البركان الرهيب الذي شطبها من التاريخ فورا (ثمة مدن يريدون شطبها مهما كان الثمن)!

ليست هذه أول مرة يكتب فيها نعيم عبد مهلهل عن الميثولوجيا فقد سبق له كتابة (حدائق الغرام السومرية)و (اليوم الأخير في حياة الأمير)وكلها قصص قصيرة تبحث في الحياة الغائبة المطمورة تحت الذاكرة منذ قرون، وله باع كبير في طبوغرافيا المكان وقراءة الأديان وروائع الحكمة كماهو الحال مع كتابه (المندائية من آدم وحتى قراءة الخامنئي) وأيضا (الميثولوجيا من نرام سين إلى بول بريمر) حتى جاءت روايته (حمام نساء في أور) لتكمل الرحلة نحو الامس، نحو ذاك المجهول من الحكايات والملاحم المنثورة في متاحف العالم وبخاصة متحف اللوفر في باريس.

تنتهي الرواية بالحرب على العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣ وسقوط بغداد للمرة الرابعة بعد هولاكو وتيمورلنك وغزو العثمانيين منذ مئات السنين، سلسلة حروب تبدأ من هابيل وقابيل(حرب بين اثنين،ثم بين جماعتين،ثم بين قريتين،ثم بين مدينتين، ثم بين دولتين) كما يقول نعيم عبد مهلهل.

حروب مستمرة . نعم، وآلهة تؤمن بالشمس والماء والنار والنخيل، وأساطير شفاهية،بعضها منقوش على الحجر وبعضها غير مكتوب،حروب شرسة تبدأ من ملحمة جلجامش حتى دكة البيت الابيض في واشنطن، متذكرين قول الرئيس أيزنهاور:في الصحراء

حارب كأنك محاصر في بيت،وحارب في البيت كأنك تقاتل في صحراء!

❖❖❖❖

رواية (حمام نساء في أور)لاتعطي نفسها للقارئ بسهولة، فهو يحتاج معها لمعلومات في التأريخ والجغرافيا وخارطة المكان، كما يحتاج لمعرفة خاصة بالمذكورين من آلهة وملوك وسلاطين وأعلام حتى تستقيم الصورة.

أظنها تحتاج إلى قراءة ثانية متأنية، حتى يهضم القارئ مغزاها ويكتشف لماذا كتبها نعيم عبد مهلهل؟

إنها رواية تقرأ الجسد واسراره الدفينة بذكاء ومهارة لاذعة.

الفصل الأول

يطلُ خيط الزمن على أمسٍ قديم عندما كانت أمي تصطحبني معها وأنا في الرابعة من عمري إلى حمام النساء، وكان يسمى حمام (أبو ليرة).

أتذكر الليرة الرشادية الذهبية، تلك التي سُكتْ في زمن السلطان رشاد، بريقها يعكس لذة مشعة على أجفاني وهي تتلصص النظرة إلى النساء المستحمات، إحداهنَّ تنظر إليَّ بشررٍ، جسدها مثل كرة أرضية من لحم متكور، أخرى تنظر إليَّ بغنج، أمي تصب الماء الحار على رأسي، أشعر بحرقة الصابون في عيني، أبكي...

واحدة تقول: يبكي من ولع النظرة لما أمامه.....

كبرت... هذا ما بقيَ من مشهد أن يَعُومَ طفلٌ في الماء الدافئ وسط حشد من المستحمات، لاشيء يبقى يا سلطان رشاد سوى متحف وأواني نحاس وعمامة وعربة دون خيول وسائحة يابانية تلتقط في عينيها الصغيرتين دهشة تخيل السلطان عارياً وسط حمامِه البخاري.

تسلط كاميراتها إلى أواني الغسيل ومحك حجر الظهر

وصوابين متحجرة، ومناشف من قطن أبيض، ومرآة بإطار من ذهب خالص، وقنينة عطر وأعواد مسواك وأشياء أخرى.

حاجات أخرى لحريمه، كلها أثواب ناعمة الملمس يُرى من خلالها كل شيء، واحدة من هذه القطع، تناثرت عليها بقع حمراء، تسألني ياكو موجي، طالبة الدراسات الشرقية بجامعة طوكيو؟

ـ إنها بقايا جروح تتركها أظافر الجواري وهن يحككن ظهر الخليفة بقوة يشعر فيها بلذة تساوي ألف جماع..

تضحك وتقول: حك ظهري.

أفعل.. ترد: لذة تساوي عندي ألف قصيدة...

عندما نعود إلى طفولتنا، وذلك الشتاء الملائكي، شتاء الفقراء الأزرق، أتخيل مشهد جارتنا في الشارع الذي لم يزره بعد الإسفلت الأسود وهن يجلسن على دكة واحد من البيوت الذي اصطف آجرها الأحمر برتابة تواريخ لا تنتهي من هموم معلقة على حبال الغسيل كما تعلق الأسماك المجففة، وبعضها تعلق مع دمعته في سجادة ضُربت على الحائط وهي تحمل تصويراً مجسداً لكل ما حدث للحسين الشهيد منذ خروجه من المدينة المنورة حتى واقعة الطف، واستعداداً ليوم مثل هذا اليوم وغيره من مناسبات العيد تقرر النساء الذهاب إلى الحمام، بعد أن عجزت مخيلة الفقر أن تبني في البيت حماماً صغيراً.

تدلف كل واحدة إلى غرفتها، تجمع ثيابها النظيفة في قطعة

قماش، لا عطر معها سوى قطعة صابون، وليس معها منشفة، ولكنها ستتمتع كثيراً بالأخبار وبثرثرة المكان، وستعرف إن كانت صديقتها نائلة صادقة حين ذكرت لهن أنّ بعلها ترك في مودة الليلة كل أسنانه مرسومة على صدرها.

لا أعرف مقدار السعادة التي تسكن أعماقي وأنا أتحضر مع أمي للذهاب إلى الحَمَّام، أتخيله عالماً من الدمى المتحركة وبأشكال كثيرة، نساء يغرقن في بخار اللذة ونسيان عنف الرجال وحشرجة حياتهم المتعبة، ضفائر تتدلى على أكتاف ملساء فيتهيج في النظرة الطفولية مشهد أن يلامس الشعر الناعم قشرة الجلد الحار، فتطير نشوة مرحة في فضاء المكان الذي تتصاعد فيه قهقهات متباينة الإيقاع وموسيقى الأواني النحاسية وهي تضرب على بلاط أرضية الحمام طالبة من نادلات المكان ليجلبن المزيد من الصابون وتقوية نار الفرن، وبعضهن يطلبن واحدة تدلك لهن ظهورهن كي يزداد فيها بريق الإغراء والبياض .

أتذكر واحدة اسمها وداد، بيضاء كشحم الشمع الذي يسفح قطراته الحارة على صواني العرس الريفي، جسدها النحيف يبرز تقاسيمَ تشبه تقاسيم تضاريس خارطة، فيما تشتعل في صرتها دائرة سمراء وتتحرك بما يتناسب مشيتها الضاحكة وهي ترد مع نهديها الصغيرين على نظرات الحسد من باقي نساء، وتجلسُ على دكة من مرمر وتقرب ساقيها العاجيين من فخذي الصغيرين، أشعر بلذة وحشية، ومع عيون النساء أمدد عيني إلى جسدها فتدور

دورة الزمن...وكأنها تدفعني إلى أحضانها كما تدفع العاصفة العصفور المشرد إلى المجهول، لأرى أقداري التي من لحظة الدخول إلى الحمامات المدهشة وحتى الجلوس مع ياكو موجي عارياً في حمام تركي بإسطنبول، وهي تفترش حكايات تتلون بتلون القدر الذي مسح بتراب البارود ودموع النعوش ودقيق بطاقات التموين، مسح وجه البلاد المبتلاة بجنون شرقيتها وفقرها وهذا الفنج البدائي اللذيذ الذي يسكن مشية وداد، فينهض حدسي وأتنبأ لأشياء ستظهر وستولد وستموت، وكأن هذه الحمامات هي من تقود العالم إلى قدره، وكأن تلك الأجساد التي توشمن برسوم بدائية، هو خليقة المكان الذي ستأتي إليه الدبابات ذات يوم، وواحدة بوزن مائتي طن ستمشي على سقف حمام أثري كانت أميرات أور يستحممن فيه وينصتن بلذة النخل في نشوة مضاجعة الموج إلى نغم قيثارة شبعاد، فيما وداد بجسدها البض ونظرتها المشتهية تدعوني إلى فصل من مداعبة الشوق، أغرق معها، فأسمع تأوهات السائحة اليابانية تصرخ في: شرقكم مختلف عن شرقنا تماماً.

أصابعي تمشي على شيء من وسائد الورد، لكنها حين تستذكر متعة الخريشة الأولى على ساق وداد يبدو أنَّ هناك فرقاً بين متعة وأخرى، ففي حمام (صاغ لو بكداش) في منطقة لالالي قرب سلطان أحمد يتفاعل هوس الرغبة المؤقتة بعابرة جاءت تبحث عن ملاذ آمن من صخب مصانع السيارات، لترمي جسدها العاري

في فرن خبز سومري، ولتهمس له وهي في عطش غامض:

ـ متى نستحم معاً في حمام سومري، تقول عنه إنه ما يزال هناك يشع بعطر زيوت أتت بها القوافل من الهند وما بعدها، أشتهي أن اغرق في دهشة ذلك المكان، فأنا في الحمام ومع رجل، أشعر بأني أرد على صفعة أمريكا وهي ترمي هيروشيما بالقنبلة الذرية.

أداري تساؤلها بالابتسامة، أتخيل جسد وداد وهو يعبر سواتر الحلم والحرب ويقرب خاصرته نحو ما أملك من ذكورة لم تنضج بعد، فتردّ عليها أمي ضاحكة: أتركيه، فهو ما زال غضاً، وليس لديه ما تودين.

تردّ ضاحكة وبدلال: سيكون له، اصبري عليه سنة أو سنتين، وسأنتظرك يا ولد.

تتعالى ضحكات النساء في فضاء مليء بالبخار وقرع الأواني النحاسية.

ولأنني أفهم بالفطرة معنى الكلام، ينتصب شيء ما، تنتبه وداد وتصرخ: كلا لن أصبر سنة أو سنتين، ها هو يصبح رجلاً، تعال إليَّ.

أبتعد مذعوراً إلى صدر أمي، أشم رائحة الحليب في ثديها، تأخذيني إليها، وهي تقول: لا تخف، لن تأخذكَ واحدة مني .

بين حَمّامَين، جنح حَمامَتَين، يرفرفان في فضاء الذاكرة، حمامة اسمها وداد، وأخرى تدعى ياكو موجي، يلتهمني شعور العري فأفضح روحي لمسرة الذكريات أولاً، وأتخيل المكان

بشكله السومري، فيداعبني الهواء الليلي، وأمدد جسدي على رخام من التأمل هناك حيث بمقدوري أن أجعل الحمامة وداد أميرة من أميرات الخيال، وفي غرفة الصدى الواقعة على أعلى الزقورة، يبتهج الملك مما يراه وأنا أداعب بأصابع الطفولة جسد التاريخ، وأمارس مع المانيكان الزمني لعبة الدمى المتشوقة لعاطفة الماء الحار، وكأننا نسكبه على رأسينا لنصل الذروة ونقتل انفعال اللحظة التي تشعر فيها أور أنَّها في كل أزمنتها تظل مهددة من الغرباء.

في تلك الغرفة الحجرية، وفي فضاء البخار اللذيذ من نار الجمر القيري، تشتعل وداد رغبة وتفيض على خاصرة الطفولة برعماً غضاً يميل مع الحاجة إلى أن نكتمل ونصبح رجالاً ثم تأتي الحروب لتأخذ فوق رؤوسنا قسطاً من الراحة فلا يعود هناك سوى ما ينتصب فيكَ مع الجرح ورسائل الأهل وتذكر من يرحل بعربات الفردوس إلى السماء من أصدقاء وأحباب وأهل.

جسد وداد، يقف وسط ساحة الحمام مثل تمثال عشتار، يؤرخ للخصب، فتغار نساء المدينة، وكل واحدة تتمنى جسدها، المترهلات والعجائز العزب، وكل واحدة يجافيها الحظ، أما أنا فأشعر بسعادة، لأنها ستنطرني ، وذات يوم سأجعل من نهديها وسائد لخيالي ولذتي والزمن الذي سيأتي بمشاوير الشوق والعاطفة والولوج إلى فوهات المدافع.

أتأمل جسدها، خيط من اللحم المضيء يتمايل كما غصن في

نسائم الهواء البارد، أطيل تأملي إليها، لو أملك الرجولة لافترستها الآن.

ترد: الرجولة أن تكون هناك في ساحة الحرب.

ـ الحرب دون امرأة تصبح موتاً أحمرَ، ومع المرأة يصير موت الحرب أزرقَ كبحر من أمنيات النجوم العائمة في شهوة السرير.

تتأملني بعيون تشتهي في جوعها القاسي تفاحة حمراء، تزيد من ميلان الغنج في جسدها الرخامي، أشم عطر صندل وجوري وياسمين، يزداد احتراقي، لأقف مع طفولتي العارية، وبجرأة محارب أرتمي بأحضانها، ليصير المشهد (طفل في أحضان امرأة تستحم).

تُصفقُ النساء، وبعضهن يرفعن علامات الرضا والتعجب لجرأتي، أمي تنادي: عد إلى مكانك يا ولد.

أنا أرفض.. كما يرفض الجريح الإخلاء من ساحة المعركة.

تقول وقد أخذتها رغبة الإبحار بدخان البخور الذي أوقده الكهنة في غرفة الصدى:

يا لَجنون الحمامات وهي تعطي لأجسادنا مشاعر الحالمة بقدرتها على امتلاك نصف الكرة الأرضية . عندما أكون لك وحدك ونصبح مثل طائرين يستنشقان بخار الحب في سماء صافية كبهجة الماء الدافئ على الجسد الطري.

أمي تكرر النداء: أتركها، فالإغواء المبكر موت، ومن الصعب تربيتك كما يتمناه أبوك لكَ، معلم في مدرسة أو موظف

براتب معقول ترفع عنه ضنك الحياة، أما أن تبقى ملتصقاً بجسدها هكذا مثل الخفاش، فقد نخسر أحلامنا كلها في تربيتك.

ترد وداد: دعيه عندهُ لهفة تعلم معنى المرأة، معنى لماذا يهبنا الله هذا الجسد وتلك النعومة.

أبقى ملتصقاً، أشعر بخدر في ساقيَّ النحيفتين، رأسي بين نهدين بحجم قارة من العسل، إذناي يلامسان شيئاً أجهله، وبقوة عريف في فصيل منسحب، تجرني إليها، وبدوري أجرُ الأزمنة إلي، فيفتح الليل بيني وبينها لذة المودة المدهشة، ولكن ليس في عام العولمة، ولا في عام الفيل، وليس في عام سقوط قسطنطينية بيد الأتراك، بل في العام الذي نصب فيه أور ـ نمو أميراً لسلالة أور الثالثة .

تصف ذاكرتي المدرسية ذات يوم في رحلةٍ طلابية إلى أور غرفة مربعة من الآجر الأسمر في ركن بعيد من قبو طويل قال عنه علماء الآثار: إنه القبو الذي دفنت فيه الأميرة السومرية (بو ـ آبي) المسماة الأميرة شبعاد.

لقد كنس المنقب المستعمر كل آثار القبو (القيثارات، الحلي الذهبية، أواني الفخار، أرغفة الخبز المتحجر، الكؤوس النذرية، تاج الأميرة المطعَّم بالذهب واللازورد وأحجار ثمينة أخرى، أدوات الزينة ومكاحل العيون، مساحيق الحمام والطاسات القبرية)، وأشياء أخرى هي الآن بأرقام وتعريفات لاتينية وتعرض في المتاحف

الغريبة.

بقي الخواء الذي نتجول فيه نحن وبنات آوى وشروح الأدلاء .

هذه الغرفة يقال إنها حمام القبو حيث وجدوا قناني الطيب والصابون الشحمي وأدوات الزينة والمرايا.

أتجول في الغرفة، صبي في مقتبل العمر، أستعيد بهاء الالتصاق القوي بصدر المرأة المستحمة فتفتح صورة الحمام في مخيلتي هاجساً من الرؤية البدائية لحسية تخيل الجسد. فأجد في قصة الخليقة هذه الرؤية المتخيلة:

هبطا عاريين، وتماسكا بقوة، كما الريح والغيمة ليهطل المطر، فهطل قابيل وهابيل.

آدم أستحم بماء الفرات، لهذا استحمت الأرض بحضارة أور وفيها نطقت أول حروف الكلام، ومن هذا الكلام، تقول أخيلة الخليقة، نزلا مع ورقة التوت واستحما بماء النهر ليكون التعميد الأول لطهارة الجسد، وبعد الطهارة يأتي الشكر والتعبد ومن ثم إغفاءة الفراش.

الغرفة مربعة الأركان، حجارتها صفراء لامعة، النظر إليها يعيد إلى المخيلة مشهد ما يحدث في هذا المكان، كم مرة استحمت الأميرة قبل موتها؟ وكم عانت من ظلمة المكان وأحست أنَّ حمامات الهواء الطلق أكثر اقتراباً لتأمل جمال الجسد؟ فهنا يكون الاغتسال مرغماً وهي تتهيأ ليقظة زوجها المتوفى، الذي سينهض من رقاده ليعيش الفردوس معها، في اعتقاد من السومريين

إن الحياة الأخرى قائمة بمجرد أن يدخل الميت وحاشيته الأحيا
بوابة العالم السفلي، لهذا هي تستحم كل يوم، إلى اللحظة التر
تشعر فيها أن لا فائدة بعد أن يقل الأوكسجين في القبو وتنتهي
المؤن من الأرغفة والشراب، ولا تسمح الظلمة لها بالعزف على
قيثارتها، فتستحم الاستحمام الأخير، وعلى أرضية من بلاط بارد
تتمدد الأميرة وتموت بعد أن تشاهد الخدم والنادلات والحاشيا
كلهم يموتون في يأس ورعب وصمت مطبق.

بين الاستحمام الأول في النهر لحظة هبوط أول البشر، وبين
الاستحمام في قبو مظلم، تبدو دورة الحياة واضحة، نولد عراة،
ونموت عراة، عدا موت الحرب، فإنه يبدو مرتدياً عدته الكاملة،
والذين يموتون في الحرب، لن يستحموا سوى بمياه الذكريات، إن
العوم فيها تكفل طهارة الجسد قبل النزول إلى قبو الأبدية ومن ثم
الصعود إلى السماء.

بينهما مسافة من تخيل الأنثى وهي تضع ورقة التوت على
مساحة الخجل التي تمتلكها، فأفرد لأجفاني مساحة قراءة في
مدونة قديمة، تخيلتها ورقة من دفاتر السير ليوناردو وولي
مكتشف مقبرة أور المقدسة، أو مذكرات صوفي مر هنا وجلس
فوق الزقورة وفاض في رؤية المكان بمرآة روحه، واستحم بنور
المكان وهو يتخيله عاطفة لطفولة سرية، فتراه يدون بأصابع
البهجة حالته الخاصة، وأراه يرتعش كما أنا حين ارتميت بحماس
الجندي الثمل في أحضان وداد العارية:

كانت معاول الرجال تحفر في الأرض بحماس، وكنت أراقب باطن الأرض وهي تفتح دهشتها من خلال لمعان اللقى، والهياكل العظمية النحيفة لبشر لم يكن موتهم منظماً، ومع كل فتحة لقبو جيد، أكتشف الدهشة الجديدة، ولكن أجملها تلك التي وجدَ فيها حماماً صغيراً في زاوية القبو وفيه يتمدد هيكل عظمي لأنثى، عرفت بعد زمن أنه رفاة الأميرة شبعاد لأنها كانت ممددة وقربها قيثارتها المرافقة لها أينما تكون حتى لو في مخدع زوجها.

فيما ينظر الصوفي إلى المشهد ذاته بعبارة: غسلت جسدها بظلمة روحها فمسكت نور الموسيقى بخوف من لقائه.

أطبعُ الصورتين على جسد وداد، فتهتز مرتعشة وضاحكة، وتتماوج عضلات خاصرتها النحيفة كما مركب في عاصفة، تغمرني رعشة بدائية كمن يتعلم اللغة بفطنة شاعر، تغازلني عيناها بشهوة المبادلة، فأشهق كما غريق، فترد: شم هواي يا ولد تعيش الأبد كله.

تقول أمي: لقد جعلتِه رجلاً..؟

ترد: وهكذا تفعل المرأة الماهرة!

لقد بكرت معي كثيراً، وأيقظت أحلاماً كان عليها أن تأتي بعد أن أغادر صباي، غير أنّها عكست في شبقها الفاضح وهي تصر على شدّي إليها كما يشدُ الغريق على حبل النجاة، رغبة فتحت في ذكورتي نوافذ أجدها أكثر متعة من دمى الطين، والخبز بالسمن، والنوم فوق السطوح، حتى ألذ من قرش العيد.

إنها فاتنة بغرابة لا يمكن تخيلها الآن عندما ينبض قلبك الصغير إلى جانب قلب من النار، فتتهاوى عروش البراءة الطفولية كما تهاوت نغمات قيثارة الأميرة في لحن الحزن الأخير وهي تصب الماء البارد على رأسها وتتمنى زمناً كان فيه السرير ملكاً، والعاطفة لحظة نشوء، والقبلة معبراً إلى سعادة مودّتين.

جسدها حار كما بركان فوجي، كان ذاك جسد ياكو موجي . لكن لا مقارنة مع جسد وداد، فقد كان لنار وداد طعم البرتقال، فيما كان لجسد موجي طعم الرماد الذري، وبالرغم من هذا كانت تنظر إلى عيني فتتخيل فيهما واحدة غيرها، وحتماً كانت ترى صورة وداد، وكنت أتمناها ترى صورة أمي.

وبين العري السومري، والعري الياباني يكتب ساداكي (شاعر من العصر الوسيط) هذا الهايكو اللذيذ:

« التي تستحم بضوء القمر..

بأصابعها المرتعشة تمسك خيوط فجر السرير الإمبراطوري ».

أنا الآن أمسك خصلة من شعرها الطويل الناعم، وكمن يعزف في عود أندلسي، تدون أصابعي برِقّة إشارات رغبة ما، فتستسلم الفتاة إلى رغبة الأصابع وتؤشر بعينيها الصغيرتين إلى رغبة الاستحمام، فينساب على رؤوسنا الماء والمودة والحب الذي يعود بي إلى لحظة الشرق الممتع في ذلك المكان الذي كانت فيه نساء محلتنا يمارسن مودة الماء، والصابون والثرثرة .

أما بنت بلاد الشمس، فهي صامتة كما وردة في نعاس القمر،

لهفتي معها لم تكن شفتين تمتصان الرحيق فقط، بل أنفاس تتصاعد كما موجة البحر في عاصفة عينيها، فيزداد خفقان قلبينا، ويزداد هدير الدبابات التي تكتسح رمل المكان الأثري، فأخاف بفزع على ذلك الحمام القديم الذي كانت فيه وداد تمارس غواية لم أر مثلها لذة وطعمًا وشهوة، غواية بدائية تخبئ بين ملامحها أنوثة مفعمة بشيء من موسيقى الجسد والقبلة والإيماءة، عندها ألتفت إلى الصوفي الجالس فوق الزقورة، فتخذلني فيه نظرة، وأصرخ:

ـ وداد.. لقد أنسيتِ هذا العبد ربه.

تضحك، وكمن يرفع رطلا من الورد ترفعني بموازاة عنقها، وتقول: شمني أيها الولد.. شمني بعمق، وتعرق، وانفعال....

أشّمها، يذوب فيَّ طفلٌ بريء، ويولد رجل وحشي، تتحول أظافري الناعمة إلى سكاكين، يسيل من صدرها الدم الفائر، فأشعر بفرق الفوران بين دم الأظافر في لحظة الهيجان والدم الذي تصنعه شظية الحرب.

الفتاة اليابانية تبتسم، أمي تبكي: لقد ضاع الولد، التاريخ يقول:

كانت الحمامات السومرية تنتشر في كل التجمعات السكانية، وهي مكان ليس للاغتسال فقط، بل هي للخلوة، والمنادمة، والغناء، واكتشاف الجمال الأنثوي. وكانت الأميرات السومريات يجلبن القيثارات معهن إلى الحمام، أما الملوك، فكانوا

في حماماتهم يستمعون إلى أغنيات الكاهنات في حمام مجاور، وبين حائط وحائط، أضع جسدي في أحضان وداد، وأجعل جسدي يغادر طفولته، ويمسك كمن يمسك على مقبض السيف رجولة تداعب بافتتان العصافير، نهدين جامدين لفتاة، جاء من أقاصي آسيا لتقص عليه فتنة الحلم ولتبقيه عند خط الحزن بين دمعة نياكازاكي وأور.

تدفع بلسانها الحلو إلى فمه، هو يدفع بخنجره إليها، ولقاء شفاه وخنجر في حمام نساء، يعني لقاء قارتين، لقاء النسمة والعاصفة، العبد والسيد، الذكر والأنثى، وأمي والحرب.

عميقاً تذهب معي، تداري كل ما في جسدي من أمكنة وشمتها الحروب والحصار بدمعة الفقر وخيبة الأمل التي لم تسمح لنا بالسفر إلى أبعد من بغداد، تهمس بلهجة الساموراي وتقول: ضع سيفك حيث الخاصرة.

وببطء وحذر، أضعه، فأراها مثل وداد، كمن يشهق من موت الاحتراق، فأدير العين إلى المتصوف الجالس فوق الزقورة، فأراه غارقاً في عبادة الضوء، ويطيل التأمل في حضرة المكان ويسأل غيب المكان: هل كانت الخاصرة وجهته؟

فأرد وأنا أمارس شوق اللحظة الفائرة مع التي تستحم معي: بل كان وجهته النور، وعطر الصابون، وطاس القير، ولحظة الانتحار.

وهكذا يصير الجماع رؤى مودة، أطيلُ معها الرقاد في بخار

الدفء، وأحس بهيجان الزمن الذي يمشي على عكازين من دمعة وسؤال: ترى هل أعياد النساء في هكذا الوضع حين يكون الشوق تلاقي الجسد بمن يحتاج ويود، توازن أشيائنا التي انفلتت من عقال اللحظة وصارت حروباً ومنافي ومقابر.

فأحن إلى حمام البدء، وأحول شهقتي مع هذه البنت، إلى طفولة تجتهد في الوصول إلى الذروة عندما رفعتني وداد إلى أعلى الكتفين وقالت: هات ما عندك.

الذي عندي كان مثل مخزن بندقية دون عتاد، لم أمنحها سوى شهوة النظر، وخطوط سعادة ملونة بخجل قهقهات النساء، وهن يشجعن وداد على مزاولة ما يتمناه باطنها في صورة مزاح.

المزاح في التلاقي لا يصنع الاكتمال في الوصول المتبادل، ولهذا حاولت الابتعاد عن الجسد المستعر من حرارة الماء، لكنها أصرت لأبقى، نظرات أمي أفهمتني رغبتها بمغادرة المكان، وببطء كنت أنزل رأسي من أكتافها، ولحين وصلت إلى حلمتي العنب، شعرت بغليان يثور بنار بهجة خفية ويكتسح أعماقي، عدت ثانية أتسلق جسدها، شعرت بشيء يبهجها، وعادت تقول متفاخرة أمام حيرة أمي:

هاهو يعود، لقد أشعرته بما فيه، ولولاكُنَّ لكان عرساً حقيقياً.

تعالت القهقهات بقوة أكبر.

أمي قالت: يبدو أنني خسرت ولدي.

شعرت بحاجة للنوم. أغمضت عينيَّ واستسلمت إلى نشوة من يستسلم لأمطار الصيف في حديقة.

من أيقظني، من مسح على خصلات شعري بأصابع رقيقة كعود بخور، من همس: أستيقظ فقد صاح الديك ودق جرس المدرسة، لا أعرف..؟

الذي أعرفه أنَّني ما زلت أبحث في فضاء الحمام السومري عن ذكريات كانت تدون يوميات مدينة، صباحها يبدأ بابتسامة موجة نهر، وينتهي نهارها بتثاؤب نخلة، فأنسل إلى غواية المكان أبحث عن واحدة تطفو بصدرها على كتفي، فتتوقد نار العبادة للدمى، ويأتي استحضار الروح بسر المدونة، وتحاول واحدة أن تداعب برقصتها الرقيقة خواطر الكاهن أو رب المنزل أو الملك المنتشي أو حتى جندي أتت به أقدار الدبابات من إيرزونا، فيجتمع عندي مشهد كامل عن تواريخ غرائز الطفولة وتساؤلات الفلاسفة ومبارزات الجند، وشروح المعلمين وتأوهات ليلة العرس وأبواق الحرب، وضحكات اللائي ذهبن في ظهيرة آب إلى الحمام الذي دهنت جدرانه بالقير لمجرد سماعهن خبر عودة الجنود من ساحة المعركة.

وأنا التفُ على صدر وداد، وأتعطرُ بنعومةِ الشحم ومساج اللحظة الفاتنة، وأشعر أنّي مثلهم قادم من ساحة حرب، ولكن إلى ساحةِ حربٍ أخرى.

وعلى بساط الريح، حيث أيامنا كمشة قطن ننسج منه

محطات أقدارنا وما حل بنا في مكان لم يذق من الموسيقى سوى مقدار دمعة ليس لها خيط مع تلك الأمكنة والأزمنة واللحظات التي تشد فيها الشظايا خواطر الجنود وتبعثهم إلى مهاوي الصمت، وحتماً كل واحد تتعلق في أشواقه بوابات حمام نسائي كان في طفولته يفتعل البكاء والتوسل ليكون هناك، حيث ألف وداد، وألف لبنى، وألف هيفاء، من يوشمنَ على أفخاذهنَ نصوص الأساطير والمداعبات بدءاً من ملحمة جلجامش، وحتى دكة البيت الأبيض.

تتأملني ياكو موجي، وكأنها تقرأ كل محطات أزمنة المكان الذي مارست عليه السيوف مساج حمامات الدم والنواح، وتسأل وهي مخدرة تحت نشوة ما أقمته معها من وداد الجسد ودعابة الشفاه، وصنع الذروة المشتركة:

ـ لماذا نحب..؟

ـ لأننا نشعر فيه، كمن يشعر بهواء يملأ صدره، فيصبح من متطلبات حياة ينبغي أن نعيشها كما عاشها آدم في مودته لحواء، لهذا عندما نفكر بهاجس نشعر فيه بالحقد أو الكره على أحد، نضع بدائل المودة، نحس أنَّ كرهنا وحقدنا في غير محله . فيكون الحب أقرب البدائل.

ـ ولماذا نموت؟

ـ لشعورنا بأن الذاكرة الهرمة لم تعد قادرة على صناعة الحب، وهذا يعود إلى تركيبة الجسد الذي تتلف فيه كل حواس

اليقظة، وتسيطر عليه الأفعال الخاملة والذهن الشارد والعجز عن الحركة والتفكير، فيختفي الحب، ولا تبقى سوى آثاره، وبالتالي تولد في شيخوختنا رغبة غامضة لعودة طفولية من أجل صناعة حب، فلا نقدر، وربما غيرنا يصنعها في كتاب أو سيرة ذاتية، ولكنها مجرد حبر على ورق فيكون الموت حقاً.

ـ بعد خمسين سنة من لحظة العري التي أصنعها معك الآن، وعندما نفترق، وتعود أنت إلى المكان الذي اشتهتك فيه وداد أول مرة، وأعود لأقرع في ناقوس استذكار ضحايا هيروشيما، ما الواصل الذي يبقى بينا لنكون متواصلين كما يفعله المتصوفة عندكم، في جعل الزمان خيط وصل بين النور الفضائي والقلب الساكن بين الضلوع؟

ـ لا أدري، ولكني تعلمت من جنوب صنعه الله من لوح الطين أن أكتب كل اللحظات الحلوة، وحين أغادرك الآن، حتماً سأكتب تفاصيل هذه المدونة، وستبقى في دفاتري لحين تحين الساعة.

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ ذلك ما أنزعج منه دوماً.. ماذا بعد ذلك؟.. ربما مثاوي الصمت التي رأيتها في صمت الهياكل العظمية الممددة على أرضية قبو الأميرة شبعاد هو الجواب الذي ينتهي بمطلق لا نعرف ملامحه سوى بذلك الإيمان الذي تغرزه الديانات بفطرة الروح ومعتقد المكان، وهواجس أخرى تزرعها فينا الطقوس والممارسات وغفوة الليل على

السطوح حين تمد ناظريك إلى عمق السماء البعيدة وتحيل مكانك هناك، في الفردوس الذي تملأه النساء بعبير العطر والعناق والثياب التي تشاهد من خلفها كل شيء.

ـ بوذا يفترض مثل هذا، لكنه يضع الفردوس في ذهاب الضوء إلى حيث ما يمكن.

ـ وماذا يمكن أن يكون هناك؟

ـ ربما مثل فردوسكم.

ـ مرات أتخيل الحمام فردوساً صغيراً، ما دام ساكنوه كما خلقهم الله، مثل آدم وحواء أول النزول. وفيه يشعر الإنسان بخلوة حقيقية ليفترض ما يشاء، وكانت كل افتراضاتي هي نهاية الحرب، وعودتي إلى بيتي، هناك بمقدوري أن أبدأ من جديد، وأستعيد مع وداد التي صار عمرها ستين عاماً ولم تتزوج، بعد بهجة ما كان موجوداً، الخيال الذي يسوره بريق أحلامنا المدهشة، تلك التي كانت تصنعها المشاهد الرومانسية في أفلام السينما، صدر هند رستم، وسرير مارلين مورنو، وأراجيح عيد الدراهم المضيئة كما وجوه الفضة، وقبل ليلة العيد تحتفي الحمامات بنا، وتحتفي في نظرات وداد وشهوتها الاستوائية فأحترق في ليلة التمني ويمتد عمري إلى الأمام بسنين طويلة، أحلمُ..أحلمُ..حتى أرتطم بقبعة الجيش.

وبين الارتطام والجسد الرخام لهذه اليابانية الذائبة كما قطعة الثلج في فم شمس دافئة، أمارس التمني وأعيش لحظة المنى من

جنس أصفر بعد أن تعبت من سواد الكحل، وخاصرة الطين وقبلة التراب والسمك .

وبين جسدين تتقلب ذاكرتي في فصول تذهب وتأتي وذاتها حياتنا لم تعرف بعد مستقراً، وعلى حين أكون عاجزاً عن صناعة ما أتمناه أعود إلى ما أفترضه رجولة لإثبات ما كنا نتمناه ونشتاق إليه، ونذبح أعناق خواطرنا لأجله.

خلق الله المرأة لتكون مرآة لنرى فيها ما يكمن فينا من مشاعر متضاربة تجاه حقائق كثيرة ومنها قضية الوجود الإنساني على الأرض دون سواها من كواكب المجموعة الشمسية.

وفي غرفة الحجر المربعة بزاوية القبو المفترض لشبعاد وحاشيتها، تضرب الموسيقى لحناً من رتابة تعاقب الأيام ولا شيء يتغير.

وكلّما يداهمها ضجر الظلمة وبؤس الجالسين معها، تتعرى وتغتسل، وتغني.

أفترض أني أسمع أغنياتها الآن ولكن بصوت وداد وهي تخط بأظافرها الحادة أنوثة طافحة، بعدما صارت منذ بهجة الحمام الأولى يوم رفعتني إلى صدرها كمن يرفع أحضان عشقه على وسادة الحب، تجمعني فيها خلوة ومبادلة بتُّ أفهمها على أنها غرام نمارس فيه طقساً من المودة والمشاركة، تأخذ مني ما تريد، ولا أحصل على شيء سوى عرق يتصبب من جسدي مثل ينابيع غزيرة، بسبب أنني لم أكمل العاشرة بعد.

تغني وداد، تدعوني إلى مشاركتها لنستحم سوية في حمام من حجر قيري جلبه والدها الذي كان عاملاً في سكة حديد بمحطة أور، لقد أرادت أن يكون لها حمامها الخاص، وليس لأحد يشاركها بهجة البخار والماء الدافئ سواي، فلقد انزعجت كثيراً من نظرات الشبق وقهقهات النساء عندما كانت ترفع جسدي فوق خاصرتها.

في ذلك الحمام الصغير كنت أسمع شدو غنائها يفيض بأنوثة الموسيقى وتمني صياح الديك والجسد الناعم، لتقول لي: جسدكَ ناعم ولكن صوتك رقيق كأنثى، ليته أخشن قليلاً، لكانت متعتي معك جارحة.

أتذكر الجرح، الجرح العميق الذي أحسّته شبعاد وهي تدرك أن لا سرمدية في هذا القبر، وأن عليها أن تنتظر بؤس قدرها، فراحت تستحم وتعزف الموسيقى، حتى اختنقت وماتت حين نفد كامل الهواء في القبو.

أتخيل موت الحمامات، يكاد يكون في تصنيف هواجس الموت، من اللحظات السعيدة التي يودع فيها البشر طورهم الحياتي، وربما طقس المؤانسة في الحمام يساوي لحظة الأبد التي يشتاق إليها الجنود في المواقف المرعبة، فيتذكرون ما كان يجري هناك، ليس في أقبية الموسيقى فقط، بل في حمامات القصب التي كانت تبنى في أركان القرى عندما يجبر الصيف النساء الناهدات بالاستحمام بعد أن تكون الأهوار المكشوفة غير صالحة لتظهر

للرائي فتنة الصدر ونعومة الساقين والضفائر الطويلة وهي تبتل بالماء مثلما تبتل السمكة بالطين وضوء الشمس ودمعة الصياد.

وبين حمامات الأمكنة السومرية، وحمامات اسطنبول، تدير الحرب القديمة ظهرها للحظة الخوض في معركة جسدين على رخام حار، وعطر شامبو الألماني وصابون يعطر بالياسمين الجسد الممتد بنحافته اللذيذة إلى أعماق نظرتك الحزينة، وأنت منشغل بطقس الحب، ومدينتك منشغلة بطقس تحمل أوجاع الدبابات والدوريات اليومية للمارينز.

الفصل الثاني

بلذة رغيف خبز حار، تملكتني سعادة مشعة، لحظة أمرني والدي بمرافقة السيدة الأجنبية التي سمحت لها الحكومة بالتنقيب في بقايا التلال الأثرية التي لم تبق حتى هذه اللحظة، والتي تقع بجوار المقبرة الملكية التي نقب فيها في عشرينيات القرن المنقب الأثري ليوناردو وولي والذي بفضل كشفه الرائع لأقبية المقبرة الملكية عشت لحظات تخيل الاستحمام في ذات الحمام الذي كانت الأميرة السومرية بو آبي تقيم مودة الحزن الجنائزي الأخير وهي تصب الماء على جسدها في شعور منها أن الماء والموسيقى حين يلامسان الجسد فربما يقربان لحظة الفردوس المنشودة...

كنت وقتها أمسك صباي من خلال وجه أسمر، وشعر أسود وعينين صغيرتين تبعثان النظرة بحزن الفقر الذي ملكناه جراء هجرة جدنا من الريف إلى المدينة من قحط ضرب قرى الجنوب، وبالكاد حصل أبي على وظيفة حارس بالآثار، وكان لا يأتي إلى البيت إلا أياماً قليلة خلال الشهر، فكنت لصيق أمي. ولكن في صباي وخصوصاً أيام العطلة الصيفية صار أبي يأخذني معه إلى

تلك الأمكنة التي يحرسها، وكان ذلك بناء على رغبتي بعد تلك الرحلة المدرسية التي تعلقت فيها عيناي بخيال ما كانت وداد تظهرهُ من فتنةِ الجسد والنظرة في حمام النساء.

تتجول السيدة بين الطلل المغبر بعصور النسيان، يشع في تخيلها ضوءاً غريباً، وكنت أستعيد مع نظرتها، شيئاً من هلع طفولتي عندما يضطرها الحر اللاهب إلى خلع ملابسها لتتمدد بجسد الشحم الثلجي وتستسلم لموج من شعاع الشمس الذي تظلله بمظلتها الملونة وتغفو كمن يستعيد لذة أطياف تمنحها الشعور بالمواصلة مع شيء ترغب في مجامعته بجنون.

بعيون بحجم وردة عباد الشمس أفتح لهفتي التي تعودت النظرة إلى العري فيتملكني ذات الاشتهاء، فلا أفكر أن أبعد نظرتي عن جسدها الملتهب بالضوء والرمل والإغفاءة التي كانت تلتحم مع أطياف الأمس وتصنع لذتها على الجسد الثلجي ليبدأ معه مداعبات خاصة فأفترض أصابع لملك سومري تحرك فتنة الشوق على خاصرة المرأة الأوربية فأشاهدها تتلوى من اللذة والفرح مثلما تتلوى العاشقة بين أحضان الحبيب في اللقاء الأول .

إن تخيل سيدة من الشحم الجرماني تتلوى مثل أفعى مشتهية على تراب الزمن لكفيل بصناعة الهيجان حتى في مخزون الذاكرة لهذا امتدت خيوط طفولة النظر الذي تسرقه الأجفان ببراءة في حمام تملأه الثرثرات وقرع أواني النحاس لتشكل رؤيا جديدة في التخيل المبكر لعمق الذات التي أرقتها ويلات الزمن وحشرجة في

حنجرتها أبواق الحروب وبطاقات التموين لترسم صورة المخيلة الأخرى لافتراض أن تكون هذه السيدة تتكامل في وعي العري والشهوة والحفر في أقبية التاريخ لتحصل على همس غريب وخمرة آتية بقوافل من أرمينا وصوت قيثارة يدع المداعبة الأنثوية بين ملك ومنقبة آثار هي مداعبة بين حضارة الأمس وحضارة اليوم.

كانت السيدة كاترين دالاس والموفدة من جامعة بنسلفانيا الأمريكية تنظر إليَّ ببهجة من يمارس شوقاً مع آخر لا يراه، وكلما أبتسم لها ببراءة مشتهية تبتسم أيضاً، حتى تخيلتها وداد التي ستقول لي بعد لحظات: تعال وادخل أحضاني الملتهبة، وكما كنت أفعل مع أنثى الحمام، سأدخل الحضن الدافئ وأمتع براءتي برجولة مبكرة ليس فيها سوى اللذة الغامضة وشيءٍ من حرارة القبلات والمداعبات اللطيفة، لكنها وكما صاغ لي خيال الرؤية ملتحمة مع عالم تعشقه وقطعت لأجله آلاف الأميال لتكون في حضرته، وعرفت أنَّ ابتسامتها التي كانت ترمق فيها شهوة صباي هي ليست لي، إنما هي انعكاسات حسية لما كانت تتلقاه من جسد ما يداعب فيها رغبتها الفائرة وعلى هذا النهار كان الملك السومري يدخل سيوفه في أحشاء المرأة فيما كانت هي تحفر بمعاول التنقيب في أعماقه وإلى حين غروب الشمس. قرأت على جسد المرأة العاري تفاصيل ملهمة من المودة واللهاث والسكر وحوارات الميثولوجيا بين ملك سومري ومنقبة آثار، ولأنني لم أغمض عينيَّ فقد تمتعت بالشجن الذي كان يدور بينهما في حمام

شمسي، وكما كنت في حمام وداد صنعت من متعة رؤيا المشهد كله في عيون المرأة المنتشية قصة لحوار دار بينها عندما كان الملك شولكي يعزف بقيثارته هواجس عشق هامسة، وكانت هي معه تغط في ذات العشق ولكن بفوران أكبر.

وعلى صدى الفوران الأكبر تولد شيطانية أخرى في رأسي ويقف انتصاب غريب بين فخذي، فتدور ذاكرة الحلم كما دورتها الأولى في حمام النساء، وفي ذروة الهوس المتبادل بين الملك السومري والسيدة الأجنبية يرتجف في عصب الحس السادس وتستيقظ اللحظة المتمناة لتتدلى على طرف الجفن السيدة كما يتدلى خفاش من حزنه بعد خيبة حب.

واستجابة لسذاجتي وأنا أحاول أن أتفنن معها بحركات جديدة، كميلان جسدي مثل دوران حمار في ناعورة، أو إدخال رأسي في كهف صدرها كما يفعل الديك وهو يدخل رأسه بين جناحيها، وكنت أردد كلماتي الأولى يوم فضت بكارتي في طفولة مبكرة، عندما صحبتني والدتي إلى حمام النساء أول مرة لأكتشف العالم برؤاه التي لا مناص من العوم فيها حتى عندما يكون الرغيف عزيزاً، وأمامها جلس القرفصاء خائفاً من ضحكتها السريعة وعينيها الزرقاوين كبحر مفتوح إلى سماوات البهجة التي يعيشها الآن برغبة أن تكون له وليس لهذا الملك الذي يحرك لسانه على مساحة صدرها المشع بالبياض الناصع، فأراه متلهفا وتنزل منه قطرات عرق غزير كما لحظة عنفوانه في ساحة

معركة، فيما تعيش هي اللحظة المدهشة بسمو آخر، وبين لحظة وأخرى ترمي نظراتها صوبي وتهديني شيئاً من ابتسامة ليس فيها تمنٍ من الذي أملكه لأجلها الآن وقد أبقت حمالة الصدر وبنطلوناً قصيراً جداً، فكان كلما رفع رأسه ليتأمل جسدها المنحني وصدرها رمته بقهقهة طويلة وحدثته بعربية غير واضحة :خذ ما تريد أيها الملك، فأنا أحب حمامات الملوك ورجفتهم المدهشة.

تنظر إليه يلتقي بريق عينيه بشهوتها، تمد ابتسامتها إليه كمن يمد حبل نجاة لغريق، ترتعش ساقاه، وبصوت يحمل الغنج والمتعة من ممارسة طقس عذب تقول: عفريت ولد سلمان، لا تريد أن تغمض عينيك..عفريت ولد سلمان ... يرتجف. إنه ليس عفريتاً، بل حزين فلم يعتد أن يرى غير نساء تكور اللحم في أجسادهن نتاج الجهل بمتطلبات الأناقة والرجيم، وليس في ذاكرته سوى وداد الذي صنع الله جسدها من طينة خاصة، والصور التي يراها لنساء الأجانب في المجلات هي صور لنساء يشبهن الملائكة في قصص جدته . مارلين مونرو مثلاً، برجيت باردو، هند رستم، نادية لطفي، ولكن هذه المرأة الأجنبية التي تتمدد بجسد يضيء مثل مرايا خزانة ملابس العرس، تلك التي أخذتها إليها وداد وتعرت أمامها بغنج لتريه لتعلمه كيف يغادر طفولته مبكراً كما تغادر العصافير أعشاشها الدافئة.

إنها تخيفك يا سلمان، وأبوك لا يزال بين أطلال قبور الملوك الذين سحروك، يحمل بين طيات ثيابه غبار أزمنتهم، ولا يعلم أنَّ

ولده الصبي أمام الامتحان العسير والرعشة المسكونة بخوف وشهوة وعيون لا تريد أن تبعد مساقط ضوئها عن هذه الحديقة التي تلتحف التراب وتمارس مودتها مع ملك جاء من معطف التاريخ ليرتدي فحولته على حساب اللحظة التي أردت متعتها لي وحدي . ولكن لحظات الخوف لن تدوم، فبيدين رقيقتين قدمت إليك قطعة حلوى، وشطيرة جبن لذيذة. للمرة الأولى في حياتك تتذوق غذاء معلباً.

قالت :إنه لذيذ.

ولأنني جائع أكلت .لم يكن لذيذاً، كان مالحاً، حتى الخبز المحمص كان مالحاً.

قالت مرة أخرى :ها سلمان لذيذ؟

قلت وقد ارتجفت الكلمات بين شفتي :لا شيء ألذ من طبخ أمي .

- ولد عفريت تتكلم بشجاعة . كم عمرك؟

- اثنا عشر عاماً يا سيدتي.

- في المدرسة؟

- نعم ..أقرأ جيداً، وأتعلم الكتابة حتى فيما لا يخص الدروس، من أي بلد أنت؟

- من أمريكا.

- أنا رأيت نساء من فرنسا وبريطانيا وألمانيا، أراهن في المجلات .

إنهن جميلات جداً . ويلبسن مثلما تلبسين، وخاصة عندما يقفن على البحر للسباحة.

ـ ولد سلمان . أنت شيطان صغير . تحب النساء العاريات.

طفح الخجل الوردي، وقلت مع نفسي، وكيف لا أحب وقصص ألف ليلة وليلة حملت إلي في طفولتي جسد ألف جارية عارية . وذلك الحمام الذي دلفت إليه مع كل طقوس الفقر والتشكي والحاجة وسعال أبي، وحسرته التي لم تغب عنه يوم أجبره القحط على ترك حقوله العطشى لتموت أمام عينيه كما تموت سمكة الشبوط على جرف الشاطئ بعد أن تبعدها شبكة الصياد عن دفء الموج.

لكن هذه المرأة تقربني إلى دفئها من خلال نظرتها فقط، فلا أمتلك سوى خيوط من براءة حزينة أنثرها على الجسد اللامع مثل وصف سكن مخيلتي للمتنبي كما الدراهم على رأس العروس، فيتجاذب فينا شيء مشترك وأحس أنها مثل وداد بدأت تتمنى صناعة الرجولة المبكرة في جسد صبياني، وكأنها في نظرتها الجديدة أرادت مني أن اقترب منها، لكن أصابع الملك تحركت بما يشبه إشارة الغضب، وأومأت لأبقى بعيداً، وبقيت السيدة مستسلمة لغربته الجديدة وكأنه يعاود حلم لياليه القديمة مع إناث جلبتهن قوافل سومر من أرمينا وبلاد ما وراء النهر وربما من أمريكا نفسها.

ولأنني لم أحصل على وداد ثانية، أخفيت نظراتي المشتهية في الأفق المفتوح على سماء لا تنتهي، وبدلت متعة الرغبة بحمام

الشمس مع الجسد الذي يظهر نصف مفاتنه لفم الملك وأصابعه، ولحين إكمالها خلع كل ما عليها كنت أتصبب عرقاً ورغبة بما كان يجري من متعة الحوار ومودة التصاق الشفتين بين الملك وعالمة الآثار .

قال الملك: الملوك لا تهيج فيهم عاطفة المودة إلا مع امرأة في حمام.

قالت: وأنا معك يا مولاي في حمام الشمس.

ـ كل مودتي أن تصاحبها نغمة من قيثارة تمنح الجسدين قوة لإبقاء التلاصق قويا وعميقاً.

ـ أفترض قبلاتي لك موسيقى، وسترى كم سأكون عميقة معك في مودة قطعت من أجلها محيطاً لا يعد بمسافة.

ـ جئت من أجل التماثيل والألواح أم من أجل مودة مع ملك في سطوع الضوء هذا.

ـ الاثنين، ولكني لم أكن أتوقع أن أكون في حضرة جسد أتمناه، ولهذا قد تكون الرغبة بكشف مزيد من التماثيل والألواح أمر ثانوي مع هذه اللقية اللذيذة: أحضان الملك.

ـ غداً سيكون موعدي مع حرب أخرى حيث عيلام تنتظرني بسيوفها عند البوابات الشمالية لحدود سومر، وسأفارق القيثارة وأعاشر السيف، غير أن عشرتي معك الآن كفيلة بخلق متعة نسيان ما سيأتي به الغد، لهذا أتمنى أن تكون بهجة مودتي معك في حمامي الأثير الذي يقبع فوق زقورة أور، تلك التي بناها جدنا

أور نمو لتكون ملاذا لنا حين نحتاج محبة الآلهة وعاطفة المودة لمن نتمناه، هناك في قمة الزقورة سيكون لنا مودة الماء والطيب والجسد، فهل تقبلين دعوة الملك.

ممتنة كثيرا يا مولاي لهذه الدعوة، حمامات الشرق هي السحر بالنسبة إلي .

ومثلما يحمل العاشق محبوبته من بين وسائد العشب، حمل الملك السيدة الأجنبية، وهي تحمل بين أجفانها غفوة سكرانة، لتنسى موعد التنقيب وزوجها الذي تركته بين الطلل يدقق في خرائط أمكنة محتملة تركها قبله المنقب ليوناردو وولي، لتغرق في نعاس أزرق صنعته نشوة الحضن الدافئ للملك وهو يصعد معها مدرجات الزقورة ليقضيا معا خلوة ممتعة في حمام جدرانه من الحجر الناعم وأرضيته من مرمر أبيض جيء به من بلاد الشمال.

أنا أيضاً صعدت وراءهما أجر أذيال شهوتي وحزني كما يجر الحصان المريض عربة البطيخ .

في داخل حمام الملك، جلست الآثارية كاترين دالاس منبهرة من جمال الملك سائلةً إياه عن معنى أن تكون الحرب بدلاً من الجلوس في الظل وارتشاف كأس من الكونياك والبدء بكتابة يوميات تبدأ من العضلات الخشنة لعامل التنقيب "حمودي" وتنتهي بلهاث أنثوي ملدوغ في غرفة بفندق الهلتون في لندن . أو نسيان همٍّ صليل السيوف ودربكة عربات القتال والبحث عن مجد بمعونة الآلهة والعوم في عطر الجسد وروحه اللذيذة؟

ولكي يجيب عليه نزع خوذته الحديدية، وعندما فعل، همس له كبير الكهنة من وراء الباب، وكان يتلصص معي على خلوة الملتصقين ببهجة البخار الحار والعطر الطيب كما يتلصص عين البوم في ليل البستان الموحش :مولاي لا يصح لملك خلْعُ عدة الحرب من أجل امرأة!

ـ ولكنها ضيفتي، دع الحرب الآن ولنرد على تساؤلها.

همس الكاهن إلى مساعده: سينسى الملك جيشه المتأهب أمام بوابات السور وينشغل بعيون هذه الصبية، من دعا رجال الآثار إلى هنا؟

عرف الملك همس الكاهن، وقال: القدر واحد لأي سومري ملكاً كان أم من عامة البشر حتى الآلهة لها قدر فدعني أتمتع بهذه العيون.

ولكنها عيون غريبة يا مولاي؟

ـ فنيت نصف كنوزي نذراً للآلهة لتمنحني شيئاً غريباً ولم تفعل، أرضى أن تقتلني عينا امرأة جميلة وهي تدعك أكتافي بأنوثتها ولا رمحٌ يرمى عليّ من الخلف .

ارتبكت كاترين وقالت بأدب فكتوري: لست قاتلة يا مولاي، أنا زوجة رجل آثار ومساعدته.

قال الكاهن: وما هذا المعول الذي بجانبك؟

ـ إنه لزوجي، وقد جئت لننقب عن سلالة كان مليكك واحد من رموز أسطورتها عندما كان يعزف بقيثارة لها سبعة أمتار فيما

بقية الحضارات لم تكن تعرف سوى الناي عازفاً في ليل مودتها وشجن الحزن وطقوس تقربها إلى الآلهة..

أحمر وجه الملك من هذا الإطراء . انتفخت وجنتاه، تمنى ما يتمناه كل رجل، شده عطرها وزرقة عينيها . كان في يدها كتاب . تلمّسه بأصابع مرتعشة وتساءل: ما هذا؟

قالت: هذا لوح من ورق دونت فيه مسرحية لكاتب اسمه "شكسبير" تراجيديا تؤدى من قبل البشر.

نحن لم نكتب في ألواحنا سوى ما نشعر فيه تجاه الآلهة حتى لا تظن بأنا نخونها.

ـ وتلك هي مصيبة هاملت، خيانة وموت.

ـ خلعت درعي كي لا أموت، فيا سيدتي أبعدي هاجس الموت بشيء من غرابة عينيك وما مكتوب في هذا اللوح.

قال كبير الكهنة بشفتين مرتعشتين: مولاي لا يحق لملك أن يقول سيدتي سوى لجلالة الملكة.

الملكة لاهية بقيثارتها وأحجارها الكريمة . إنها لا تعرف أني خارج للحرب اليوم.

قالت وقد تضايقت من تدخلات الكاهن:

ـ مُرْه يا مولاي أن يبتعد عنا عشر خطوات .

شعرت بسعادة عندما تمنت على الملك أن يبعد كاهنه فقط عن المكان وهي تعلم أنني وراء الجدار أمد مسامعي لإغراء الهمس والمودة وما تصدره الأنفاس عندما يلتقي جسدان، وحتما كانت

كاترين تعلم بمستوى الشهوة التي تسكن صباي وأنا أتخيلها تفعل كل شيء في أحضان ملك نسي الحرب والتجأ يطلب لجوءاً عاطفياً في أحضانها الدافئة.

قال الكاهن: همس النساء يؤذي الذاكرة وسومر لم تعتد إلا على همس الآلهة . أرجوك يا مولاي لا تلبي رغبة الغريبة.

وبحركة رشيقة باعدت ساقيها ليظهر بعض من لمعان نجوم لذيذة . أغمض الملك عينيه وقد رسم الحياء على وجنتيه خطوطاً وردية مرتعشة.

- ابتعد يا نام -سين ودعها تهمس . قد يجد مليكك في هذا اللوح الذي تمسك أشياء جميلة.

قال الكاهن: وسأظل أراقب هذا الهمس بنظراتي وإن لم أفسره سأشكوك إلى الآلهة.

ابتسمت كاترين، وبدأت تفرك بين أصابعها دمية فخارية.

قال الكاهن بذعر: ما الذي تفعلينه أيتها الغريبة؟ دعي تمثال نتار، لقد صنعه أطفالنا لحماية ملكنا في حروبه.

وبحركة أكثر رشاقة من عازفة قيثارة مدت أناملها إلى عنقها الرخامي وداعبت أحجار قلادتها اللازوردية، وقالت: لا عليك أيها الملك ستكون بأمان معي .

ثم أخذت بيد الملك ودفعته إلى جسدها كمن يدفع حمامة بيضاء إلى أحضانها ليمارس معها رفرفة الجناح وعذوبة الزقزقة:

"هنا ستكون خلوتي معك بعد أن مللت غطيط زوجي .

سأجعلك هاملت متحضراً يرتقي بهواجسه إلى تلك الغرائبية التي أبحث عنها لتكون عنوان مذكراتي.

ومعاً عاشا اللحظة متلاصقين كشجرتين بجذع واحد . فيما وقفت عذارى المعبد يمسكن شموع الابتهاج لملك قرر بدل الذهاب إلى الحرب مؤانسة هذه المرأة التي لا ترتدي ثوباً سومرياً بل فستاناً أبيض شفافاً . عندما شاهد الكاهن ما خلفه لعق يده بلسانه وقال لمساعده: هات لي يا أوتو جرة الخمر.

ترنح الكاهن من أول جرعة، وفي الثانية أفرغ كل ما في الجرة وقال بصوت عالٍ: لتمت عيلام وليعش الملك والسيدة الغريبة . ثم مال على دكة الزقورة وغفا، وأطلق من منخريه صفيراً عالياً، ذكرها بصفير منبه سيارة الدوج البطيئة التي أقلتها إلى هنا وتلتقي بمن تحلم بمقابلته .

الملك الذي قال عنه التأريخ إنه أول ملك على الأرض كان ملكاً وكاهناً وموسيقاراً يعزف بقيثارة لها سبعة أوتار..

قالت كاترين وقد جلسا ليستريحا منتصف المسافة في طريق اللهاث والقبلات وتبادل الهمس والخمر المثلج، وهي مليئة بنشوة مصاحبة ملك سومري :

مولاي، في هاملت هناك حب قاتل خلق لديه مأساة اقترنت برائحة المرأة .. مأساتك أنك ستقترن بالحرب وتنسى ما هو أهم من الحرب، الموسيقى التي تحبها وتتقن العزف فيها؟

- هذا حديث عرافين . هو ملك . ربما تزاحم أحلامه عيلام

أخرى.

- مأساته اجتماعية صرفه، ومثلما دونت في شريعتك يكون للسيف الفصل بعد التأكد من الجرم ، هو حسم أمره إلى السيف بعدما عذبته المعاناة الروحية لما شاهد من خديعة وخيانة من أقرب الناس إليه.

- كنت أظن أن الأشياء الشريرة لا تدوم مع البشر ما داموا يكتشفون أشياء جديدة.

- إنها أزلية دائمة . الخير والشر سيظلان يلازمان حياة البشر.

- أجدادنا دونوا مثل هذا في ألواح الخليقة . آه قيثارة الملكة ازدادت طرباً . ما الذي يحدث في القصر؟

أطل من خلال نافذة الحمام ليستطلع ما يجري حيث الكاهن غارق في سباق الثمالة.

- هي ألحان الغيرة يا مولاي . لقد علمت أنّك معي؟

- هذا لا يهم . والآن أسألك :جميلة هي أور؟

كان الهواء البارد يضرب الخد الأحمر فيزيده توتراً، وكان وقوفها بانتصاب وسط مساحة البلاط الحار بشهوته المرمرية البيضاء ليثير غزل الليل، ويدفع النجوم بزحمة مضطربة لتختفي بين طيات جسدها المتلهف لشجن الموقعة التي يضمها حمام ليلي يشع طيباً وموسيقى تعزفها أنامل زوجة غيورة،حركت الريح أطرافه وصار يرسل كما ورق الشجر إلى مسامع الملك حفيفاً موسيقياً، وهو يسرح بنظره صوب أسواره فيما بدأ الجند يطفئون

نيرانهم استعداداً للنوم .

وبقيت مشاعل الخيمة الملكية مشتعلة منتظرة الملك ليضع مع قواده خطط المسير القادم ولكن إله القمر وقد سحره نومهما مضطجعين على سرير الرخام الحار وهما يصبان الماء على جسديهما كما مطر من غيمة ثقيلة، أمر بإطالة أمد الليل، فالآلهة لم تتعود أن ترى مودة الشوق في العناق البشري داخل غرف الاستحمام وهناك نشطت في ذاكرة الملك أمنيات فوق مستوى الزمن، وهاجت بين فخذيه رغبات طائشة جعلته يترنح نشوة وهو يخبئ رأسه في صدرها ثم يمارس إطلاق الأوامر إلى تلك الجهات المعجونة بالثلج والزبد . ورائحة زهور غريبة، ومع أول نفس هاج من فم كاترين المنتشية نهض الكاهن فزعاً وتساءل: أين أنا؟

قال المساعد: كنت نائماً يا سيدي . والملك وضيفته ذهبا ما زالا في غرفة الاستحمام ولا يُسمع سوى نشيجهما المتصاعد مثل آلات الموسيقى الطروبة .

انتفض الكاهن مثل مرعوب من مشهد لم يألفه، رفع يديه إلى السماء كمن يطلب شيئاً وقال بصوت متضرع:

هناك سيقتربان من أنو وسيعجب ننار جمال المرأة وسيعاقبني وأطرد من المعبد . وستعود نام ـ سين مثل عامة البشر، لا نذور، لا خمر، وستشرب الماء المالح، ما الذي فعلته هذه الشقراء؟ أربكت الحياة في سومر كلها .سأذهب إلى غرفة الاستحمام وأغرز خنجري في خاصرتها الزجاجية وإلا لن تكون هناك كهنوتية ولا

حرب.

رد عليه المساعد:

ولكنهما الآن في مكان لا يحق لرئيس الكهنة الدخول إليه.

- ستلومه الآلهة لعدم توجهه إلى ساحة الحرب وستمنحني البركات لموقفي وسأرقى وأصبح أنا الملك .أوتو يا كبير الكهنة هات للملك نام - سين جرة خمر أخرى.

لكنه عاد وقد تملكه الحزن . أبعد عن فمه جرة الخمر، وأطلق نحيباً خشناً وقال: ما دام قد سمح لهما ننار بدخول غرفة الاستحمام معاً فقد أعجبه صعودهما ملتصقين حيث يجلب دفء النار إلى الأكتاف شعوراً بالتجاذب.

جلس الملك على كرسي صغير يتأمل كما الأطفال من نوافذ المطر قرفصاء النار المتشكلة أحزمة زرقاء في فضاء غرفة الحمام المعطرة .

قالت كاترين: الشرق هو أن تبقى دائماً مع الخيال، ملك وعطور وتحف ثمينة .

- وهل كان هاملت شرقياً؟

- من الغرب، من بلاد أبعد من أرمينيا التي هي أقصى ما يعرف جلالتكم.

- أقصى الأماكن نصل إليها عندما نطلب من الآلهة، ولسوف تلبي رغبتي بالتعرف على هاملت.

- هو من صنع خيال شكسبير، ولكنه موجود دائماً في كل

عصر . أن تكون أولا تكون ذلك همه.

- وأنا جعلني تدخل الكهنة وعيلام أفكر بهذا الهاجس وما هذه الجيوش إلا لأجل أن أكون. وغداً سيكون لي صراع مع عيلام لأحفظ سومر من شرها .

ويخجل وارتعاش مفضوح نهض الملك وتقدم صوبها وقد أرخت ساقيها باتجاه الموقد ولتردد بكلمات ممسرحة عبارة هاملت « طوبى للذين امتزجت فيهم نار الدم برجاحة العقل، فيما عادوا كالناي تحت أصابع ربة الدهر تعزف لهم ما تشاء ..أعطني امرأ ليس عبداً لشهوته أضعه في حبة قلبي .في القلب من قلبي ..»، على الصدى العذب لإلقاء السيدة نسي شولكي المملكة والآلهة والحرب، وبحنو وهدوء تمدد قرب المرأة وليتحسس معها عذوبة أن يكون الرجل مع المرأة .

فيما كانت مخيلة نام - سين تطيح فيها مشاريع مجنونة وبقرار جريء قرر الصعود إلى أعلى الزقورة، واقتحم عزلة الملك، وهو يمسك خنجراً لم يجرب في جسد أي إنسان بعد، وبعيداً عما يحدث أبدى الملك رغبته بتدوين كلمات هاملت على حجارة المعبد، وقال وقد قربت إليه كامل جسدها:

إني أهيم بما تمنحه ربات الدهر تلك التي نسير بحكمتها إلى أقدارنا، نحن المبتهجين الآن لا نعلم ما ستكون أور كلها مرهونة فيه في الغد . أيتها المرأة يا من ملكت حظوة الملكات في منادمة نار . أنا لست عبداً لشهوتي . أنا عبد للآلهة وهذه البلاد . خذي

لوحك الجميل ودعيني أطف في بحر ذكراك، وستظل عيناك أرقاً لأجفان ملكٍ لها لحظة عن شعبه لأنك جئت لتفتحي القبور، وعندما أيقظتني بشيء من خداع الجميلات لتقولي: أيها الملك جئتك بمرآتك الثانية -

هاملت - لا أريد.

لقد أغضبت الكهنة وأحزنت جنودي، وستغتاظ الآلهة أيضاً، وأفقد رعايتها، وتضيع سلالة بنَيْتها بعرق الجبين ..أغلقي الكتاب وعودي.

وكأم حنون نهضت كاترين . لقد فهمت ما يريده الملك . إنه يريد أن يبقى مع عيون ننار والأقداح النذرية وصناديق الموسيقى، لكنها لا تستسلم . لقد أرسلوها لكي لا تستسلم وستلعب ورقة أخرى، وبذات الأصابع الرقيقة، أخرجت من بين نهديها كأساً من الكريستال وزجاجة خمر صفراء، انذهل الملك من دقة صناعة الكأس وصفاء لون الشراب . تراجع مفزوعاً وقال: هذا ثمن رفقتي لك"سم!"؟

- مولاي . هذا نبيذ من أجود الأنواع، أتوا به من اسكتلندا خصيصاً بوصية من مدير المتحف البريطاني.

- يفترض أنا من يقدم النبيذ لأنك ضيفتي.

- الكاهن شرب الجرة كلها، ولم يبق سوى نبيذي، ليتضارب قدحانا . إنه تقليد مجاملة للعصر الذي أعيش فيه.

وتبادلا نخبيهما، ولأنها خمرة جيدة قال: لنتبادل النخب مرة

أخرى.

ـ هذه المرة وحدك تحتسي ما شئت من الأقداح . الليل طويل ويحتاج كما يقول العشاق إلى الشعر.

-في الشعر قلما نمجد العشق. فيه نمجد الملوك والجنود والآلهة.

ـ والمدن . كنت قد سألتك كيف ترين أور؟

-هي السحر والأحلام الأولى، ولكنها تحترق في النهاية وستدون لها قصيدة رثاء رائعة تقول:

« مرٌّ أيتها المدينة طعم رثائك . أيتها المدينة التي كانت ترهب الأعداء . والآن قواك الإلهية نقلت إلى بلدان بعيدة .إلى متى ترثيك السيدة مر الرثاء وتبكي من أجلك، إلى متى يرثيك الإله ننار ويبكي من أجلك، أيتها المدينة أور، مرّاً صار طعم رثائك ». دمعة سالت على خد الملك، وقد أبعد عن شفتيه الكأس، وقال بصوت باكٍ ارتجف على أثره الكاهن خلف الباب . لقد سمع لأول مرة في حياته ملكاً سومرياً يبكي: إني أرى أور في عينيك وهي تحترق.

ـ هذا فعل الخمر مولاي . أور لم تحرقها عيناي بل أحرقتها عيلام ولكن بعد عشرات الأعوام من عهد جلالتكم.

قال الكاهن بغيظ مع نفسه متمتماً: بل أنت من يحرقها الآن إنك تتسين الملك أداء مهمته.

ننار دفع بكلمات الكاهن إلى مسامع كاترين . وقالت وهي تعلم أن الكاهن الذي يتأهب مع خنجره خلف الباب سيسمعها.

ـ أنا زوجة رجل آثار، جئت مع زوجي لأكتشف ما تقوله

الأساطير عن سحر الشرق، كان عليك يا مولاي أن لا تخلع عدة الحرب وتغيظ الكاهن المتربص بي خلف الباب، لا أدري ماذا يريد غير هذا المجد . ربما يطمح أن يصبح ملكاً، وهو الذي أنقذته من التسكع في شوارع أور، وجعلته الكاهن الأول.

ارتعب الكاهن وقد اكتشفت نواياه . قال هامساً من وراء الباب: لا أقبض على خنجري يا مولاي . إنني أمسك جرة خمرك المفضل.

- لا خمر أفضل من هذا الذي أشربه . عد إلى المعبد مع خنجرك، وستحاكم غداً في بيت الحكماء وسأجردك من هذا المجد . ولتعود متسكعاً مثلما كنت لأني لا أرغب في أحد غيري ملكاً.

سقط الخنجر من يد الكاهن وبارتجاف ارتفع صوته الجنائزي فأيقظ صداه أور كلها:

عفوك يا مليكي أتضرع بالإله ننار إليك لم أرغب في أن أكون ملكاً، لكن عيون السيدة كانت تقول :

إنك الأصلح يا نام –سين لتكون ملكاً، فملوك سومر في البدء كانوا كهنة ما خذلني غير عينيها، إني أحذرك منهما يا مولاي.

سعدت كاترين، وقد كسبت الاثنين بعد أن ترجت الملك بالعفو عن كاهنه، ونادته وكأنها صاحب الأمر: أعد الخنجر إلى غمده يا نام –سين، وفي المعبد هناك انتظر أوامر الملك الجديدة، اغسل رأسك بالماء البارد لتزيح عنه الخمار.

امتثل الكاهن للأمر والحزن يملأ أجفانه ولكي ينزل، عليه أن يتحاشى نظرات الاستهزاء من العذارى حاملات المشاعل ولأنه لم يتحمل فكّر بطريقة مجنونة للوصول إلى الأرض دون النزول من السلم . رمى بجسده الثقيل بعد أن أطلق صرخة مدوية نفخ على أثرها بوق النفير لمسيرة الحرب، وما أن لامس جسده الأرض الصخرية حتى تحول إلى أشلاء.

تقدم المساعد صوب بقايا الجثة وهو يفرك يديه فرحاً، ونزع عن صدره القلادة وهمس: نهاية سعيدة يا مولاي .وداعاً .

كان الملك بعيداً عما حدث .. بوق النفير أيقظه من نعاس العطر الذي تضعه كاترين بين نهديها .

قال: كنت أحلم، ولكن البوق أفسد كل شيء . ما هذا النفير؟ لم أقرره بعد . من تجرأ وأمرهم بذلك.

ـ رئيس الكهنة يا مولاي.

ـ مرة أخرى يتجاسر هذا الوغد . لسوف يدفع الثمن وسأقطع رقبته دون محالة.

ـ عد إلى حلمك يا مولاي . لقد دفعه باهظاً . وهو عاقب نفسه، إذ دفع بجسده من أعلى الزقورة .

ننار بعث الآن نسراً كبيراً وحمل الجثة بعيداً . وقلادة اللازورد التي تعطى لمن يخلفه أخذها مساعده، وهو الآن يهيئ في المعبد طقوس تنصيبه.

ماكرون هؤلاء الكهنة ..وبالرغم من هذا كله تستطيبهم

الآلهة فهم يلبون كل ما ترغب فيه المباركة منها والمشيئة.

- وبالرغم من هذا تبقى أنت الأول في المملكة يا مولاي، معي ستكتشف وجودك ثم تذهب إلى الحرب لتنتصر .

- إذن لتصبحي أنت كاهنتي، وسأرجو الآلهة لتبارك ذلك.

انتشت كاترين فقد استطاعت أن تعيد الملك إليها . وباعدت ساقيها أكثر من ذي قبل وأخذت نفساً عميقاً حتى كاد صدرها المندفع برغبة كهنوتية أن يصل إلى السقف . بدا الملك حائراً . من أين يبدأ مرة أخرى وقد منحته نشوة الخمر الذي جلبته السيدة الأجنبية الرغبة بممارسة مودة الجسد بالطريقة التي تحسنها المرأة كما في زمنها. لقد كشفت له كل شيء . وقالت وهي تريد إرشاد الملك إلى الطريق: مولاي، في عصرنا الغرام يبدأ من قبلة على اليد.

وبشفتين مرتعشتين قبّل راحة اليد الدافئة، ولأن الشفتين ملكيتان فعذوبتهما لا تحتمل سايرتها ارتعاشة قوية، نسيت أنها في مهمة أخرى . أن تلهي الملك وتومئ لرجال البعثة بنهب كل شيء، كان غراماً أسطورياً . دهش نار وهو يرى الجسدين متلاصقين بعنف غريب كذلك الالتصاق الذي أحدثه العراك بين سليل الآلهة جلجامش وصنيعها أنكيدو في أول لقاء لهما في شوارع أوروك . الآن عراك من نوع خاص بدأ بقبلة في راحة اليد وامتد إلى الساقين العاجيتين ومن ثم إلى الخاصرة، وهنا سرت كهرباء ملكية مشعة اشتعلت مصابيح الكلمات في الكتاب الذي تمسك

به وواصلت ترديد كلمات لاتينية، ربما هي صلاة خصب تعلمتها من أيقونات كنائس روتردام، ننار سمع كل كلامها، وطلب من خاصته ترجمة ذلك . لا أحد يعرف سوى زوجها النائم في مخيم البعثة قال الإله: أيقظوا زوجها.

أنو أشار إليه أن لا يفعل ذلك كي لا يفسد ليلة الملك . لم يحزن أنو ولا ننار لفقد الكاهن، هما الآن يملكان حسابات أخرى فيما كانت قيثارة الملكة تضرب أوتارها على صوت مغنية القصر التي أطربها خبر موت نام -سين . لقد كان شهوانياً في نظراته حتى وهو ممتثل في حضرة الملكة . كان آنو يلاعب أحجاره في ساحة المعركة كي يضمن انتصار الملك، لكن الأحجار لم تتحرك من مكانها رغم أنه أمرها بذلك، اندهش شيخ الآلهة وقال بصوته الكوني: ما الذي يحدث . قال ننار وقد مال شجناً بتلك التي تسرح شعرها في مرايا عيون الملك وعلى صدرها ينقل بيادقه وخيوله، حيث تهاوت دفاعاتها مع أول نفحة عطر جلبها إلى أنفها الزجاجي صدر الملك العاري .

قال: وحدها، أحجارك ظلت واقفة لأن العالم منشغل حتى عن إله عظيم مثلك يا آنو . هذا فعل النساء أيها الشيخ، لقد جذبت مليكك إلى أحضانها وأنسته خطط الحرب كان عليه في الغد أن يذهب ليلاقي جيوش عيلام، كل أعداء سومر تريد ننار ليزيح عنها الظلمة ويكشف أقدارها ويثبت تيجان ملوكها، حتى هذه المرأة القادمة إليَّ أنا ولكن بريق عيون أور- نمو سحرها.

ولأنهما الآن في وضع بشري لم أر أكثر سحراً منه في التصاق كائنين فلن أفسد عليهما هذه المتعة، ودع أحجارك إلى الغد عندما يفيق الملك من نشوة ليلته ولتذهب إلى أريدو حيث الإله.

انكي ينتظرنا على مائدة الخمر الإلهية، فهؤلاء البشر في أحايين كثيرة، رغبتهم تفوق رغبة الآلهة.

قال أنو، وقد غاظه كلام ننار: اعتبر كلامك هذا عصياناً وانحيازاً للبشر.

ـ سمه ما شئت، وعلى الآلهة أن تعرف أن لا هروب من حقيقة يصنعها البشر، لقد استطعت أن تحد من جموح جلجامش وخلقت ثوراً سماوياً لأن جلجامش سليلنا، هل تريد أن تخلق آخر يمنع لهفة الاشتياق عندهما، ستهزأ منك الآلهة كلها، فليس ثمة ثور في حكايات البشر حال بين اثنين من أن يمارسا الحب.

صمت أنو وقد تصدعت كل حواسه، فالابن غير الشرعي لأنليل يمنعه بحجة حكيمة من إيقاف ما حدث الآن في الحمام الملكي، أطرق برأسه وأومأ للنجوم أن تنطفئ قليلاً.

ـ وأنت يا ننار أزح وجهك بعيداً فثمة أمر أرتأي التفكير فيه وحدي . أذعنت النجوم طائعة لأمره، وأطفأت شموع أفئدتها، غير أن ننار انبرى ضارعاً :

لا أريد أن أتركك تفكر لوحدك أيها العزيز كف عن دفع البشر للاحتراب والاقتتال لا بد أن يكون ثمة حد فاصل بين معركة وأخرى وليكن لحظة غرام.

- ها أنت لاهب الشهوة كدأبك يا ننار، أقحمت حكمك علي فكسبت لكنك لم تطع أمري ولم تزح وجهك عني، بقيت ناصعاً تفضح نواياي، سأجمع مجلس الآلهة وسنتناقش في أمرك.

رد ننار بتمرد وغضب:

- أنا سيد الليل وسادنه، إني أدعهما يفعلان ما شاء لهما فلن يرهبني مجلس الآلهة.

- في يوم ما سأجعلك تدفع ثمن تجاوزك، فأنت حقاً سادن هذا الليل، لننس الأمر ولنقصد أنكي، لنكرع الخمر في معبده.

كانت كاترين ترمي بجسدها الثائر في أحضان الملك النحيل وكان تحاورُ الآلهة يطرق مسامعها وقد حققت انتصاراً، ثم واصلت الاستجابة لعواطف الملك النارية وحين أطلق الفجر خيوط نوره الأولى كانا هما في وضع استرخاء منعش وقد أفرغ الملك كامل زجاجة الخمر في جوفه وقد مارس مع محظيته الجرمانية ما يفعله مع بعله الملكي لسنة كاملة، لهذا دب النعاس إلى أجفانه فانسلت بهدوء وغادرت الغرفة ليقابلها الضوء، وأصوات المعاول، وليخاطبها زوجها:

- أين كنت يا كاترين؟ لدي خبر يسرك، عثرنا على قبر الملك شولكي، سأهدي قيثارهُ إليك.

فتحت باب حجرة الحمام الملكي، نزلت بهدوء من سلم الزقورة يملؤها ارتعاش ليل الغرام، وقالت وقد طفحت على وجهها سعادة

زرقاء :حسن أنا قادمة لأرى إن كانت أسناني وقبلاتي لا زالت مطبوعة على صدره الواهن.

الفصل الثالث

لحظة البدء، حين خلق الله آدم (ع) وأنزلهُ الأرض وعليها بنى حضارة الوقيعة الأولى بينهُ وبين بعله حواء، فكانا قابيل وهابيل، اللذان عاشا ألفة أخوة العيش في البراري والاستحمام سوية، وسوية كان شجارهما الأول فمات واحد من الأخوين من شجة حجر صلب على رأسه، ومن يومها تطور الشجار بين أخوين ليصير بين جماعتين ثم قريتين ثم مدينتين ثم بين دولتين.

وبين شجار الحجر وشجار الدبابات عاشت الأرض عصوراً لا تحصى، أمم سادت ثم بادت، وفي النهاية هذا الحجر الذي أنهى المودة بين قابيل وهابيل، صار محكاً للأرجل والأيدي يستعمل في طقس الاستحمام، وفي العادة يكون هذا الحجر أسودَ وخشناً بنتوءات كثيرة، ولا أحد يستذكر معه لحظة ملامسته الجسد، إن هذا الحجر الذي نستخدمه لكي نكتسب النظافة، كان في الأصل أداة قتل، لهذا أستذكر الآن كيف كانت وداد تدعك جسدها الترف بسوار خشن فيزداد لمعاناً كما ومضة شهاب، فيما يبقى الحجر أسودَ وخشناً مثل الشظية في خاصرة الجريح.

ذات يوم حملت حمامي إلى ساحة الحرب وفي جعبتي ذات

الحجر الأسود الذي استكان الآن إلى الهدوء والصمت ولم يعد مخيفاً للرأس البشري بقدر ما تخيفه الرصاصة أو شظية المدفع أو تناثر حديد اللغم الأرضي، حملتُه ليس دفاعاً عن نفسي في هوس حرب قاسية، بل أردته محكاً للجسد حين تسمحُ لي راحة الجندية بغسل جسدي والاستحمام وإزالة غبار الخنادق الشقية وتحصين سور الموقع بأكياس التراب، وتعرق السير الشاق في الدوريات الليلية ومد الأسلاك الشائكة، وكنا قد بنينا لنا حماما في الحافة البعيدة من محيط موقعنا الصخري الواقع على نتوء جبل يلامس الغيوم بأصابع العشب الخضراء كما تلامس أصابع الموسيقي مفاتيح البيانو.

نشوة الاستحمام فوق جبل تبدو أكثر متعة من شم الورد بالنسبة للجنوبي الذي يستذكر في برودة الماء الهاطل على الرأس تلك البيئة الدافئة لسلالات البط والنخيل ومقاهي الفرات في أماسٍ تملأها ثقافة الشاي والعرق والأراجيل بحديث صاخب عن الذي يجري في عالمنا، من قبعة جيفارا إلى رموش صوفيا لورين، ومن حنجرة أم كلثوم إلى دموع زهور حسين وهي تلاقي أجلها في حادث سيارة في طريق الديوانية - بغداد، ومن سدارة الزعيم عبد الكريم، إلى بعوض المخافر الحدودية، حيث يصبح الجنوب للجنوبي كما العطر إلى الوردة، وكما القبلة في دقيقة الوداع، وكما الرصاصة في قلب من يود الموت الآن. للشمال متعة الليل، وللجنوب حلم قيلولة الظهيرة .ولكي تجعل الجسد واحداً، صاهر

الجهتين على سرير شهوة الشعر وسترى، أن الله حين خطط بقدرته الشفافة تضاريس الأرض فصل بين ا لعاشقين بجهة اسمها الوسط، فبين كل شمال وجنوب منطقة نعبر منها إمّا صاعدين أو نازلين، وفي الحالتين كنا نرتدي قبعات الحرب، ولأجلها كنا نصنع الحزن كما تصنع أمهاتنا شهقات القلب حين تدق البيانات بيوتنا بخبر التعرض الليلي على رواقم بنجوين، حين كنا هناك، صبية تتورد على خدودنا شهوات القبلات وتندمج بين شفاهنا تعابير الهمس لامرأة حين تطل بجفنيها على ورق الرسائل يتوقف الزمن كجندي مذنب أمام آمره ، وحين تنطق أوامر الضبط عقوباتها، ينالنا اليأس من أن الذي كنا نريده لن نحصل عليه بسبب دعارة الحرب وقدرتها على تشتيت الذاكرة في مساحة ضيقة ممتدة بين الفرضة والشعيرة.

وكنت في كل ساعة استحمام أتخيل وداد تستحم معي بجسدها المكتنز كما جسد قنبلة مدفع من العيار الثقيل، فيحمر وجهها من الغضب، ربما لأنها لا تريد أن يقترن جسدها الذي كنت تخيلته في بواكير كتابتي الأدبية الأولى بغيمة من الورد تمطر عطوراً من رياحين لا أسماء لها، وربما لأنها ذاقت من الحرب أكثر الويلات عندما اقترنت وهي في الأربعين من العمر من عريف مطلق، أنجبت منه ولداً ثم سرقته واحدة من جبهات عبدان، لتبقى أرملة ولا تلعن شيئاً سوى الحرب.

وبجسد فائر بعريهِ الناعم، وفوق قمة عالية كرموش تتدلى من

أفق أزرق، أتخيل المرأة وهي تقف أمامي، تزيل بالحجر غبار يوم الحرب، ومعها تقف كاترين بذات العري والثياب الخفيفة التي مارست فيه مودة الاستحمام بالحمام الملكي فوق الزقورة، ومن كلتا اليدين الناعمتين حصلت على لذة ونشوة أنستني قسوة تلك التي مشينا فيها في أودية مظلمة نبحث عن شيء لا نعرفُ ما هو، فرجعنا ممتلئين بالتعب والخيبة وأمنيات كلها تتعلق بخيط النجاة ونهاية هذا العهد الممتلئ برائحة الرغيف وقسوة الخوذ الحديدية وصعوبة قيادة البغال بين هذه المرتفعات الصخرية العالية.

في غرفة امتلأت بالأبخرة العطرة والمجامعة الملكية على أنغام موسيقى ليل شعلة نيران التأهب للحرب وعيون الكهنة التي كان قد غاظها هذا الود الملتهب واعتبروه خروجاً عن واجبات الملك من أجل سومر وهيبتها والتودد إلى الآلهة، ليعاد الآن طقس الاستحمام مع سومري آخر، ولكنه ليس ملكاً، بل جندياً يعيش في لجة الحرب وزحامها، وهو ذات الصبي الصغير الذي أعطته حنان اللحظة التي كان الصبي يتمناها ولكنها كانت حينها من حصة الملك، أما الآن فهي والملك وتعوم معه في خيال الماء والصابون ، فيما وداد تمسك محك الحجر وتمرره على ساقي كما تمرر الغيمة ابتسامة المطر فوق حقول الأرض ، فتهطل سعادتي فتغتاظ وداد وتقول:

ـ ما الذي تفعله مع هذه المرأة، أما يكفيك ما فعلته لأجلك عندما أيقظت فيك رجولة ولم تزل في العاشرة، أنت لي، ليس لأنك

تعوض رجلاً فقدته في الحرب، بل لأني أقسمت أن لا أفقد مودتي في حرب أخرى، ولهذا قبلت أن أجيء إليك بالرغم من خطورة المكان، أجيء لأمارس معك أحلاماً لم تكن تكتشف نفسك إلا معها، أمّا هذه المرأة الشقراء فقد كانت لا تحب سوى مسرّة الملوك لهذا هي ليست من ثوبك وليست لك، وحدي من يعرف مصيبتك ويصل إلى عمق ما تود وتفهم وتتمنى.

قلت: أنتما الاثنان خيط لشهوة واحدة وليس باستطاعتي استدعاء واحدة دون الأخرى، لأنكما تشكلان وحدة في صناعة حلم تلك الأزمنة، لن تعود بصفائها الذي كان يدفعنا لتخيل كل شيء، والآن ذلك الخيال تحول إلى سراب من رغبة باستعادة ما كان، ولكن في الحرب، ليس من السهولة أن تستعيد ما فات، إنها تضعك أمام طريقين، إمّا أن تنحرّك الشظايا، أو تعود تئن مع الذكريات الحزينة عن أيام فقدت فيها ألفة الصديق أو بقعة من أرض أو شجرة احترقت بعدما كنت تكتب تحت فيئها قصائدك الجميلة، وفي الحالتين خسارة، لهذا فإنَّ العودة لما كان من خيال الخيال والتمني لا يتم بواحدة، ما دمتما أنتما الاثنان تلتهبان بأجساد الرغبة القديمة في جسد ولكل واحدة لها مذاق خاص.

- لا أظن أنَّ واحدة أطيب من مذاقي، كان مذاق هذه المرأة ليس سوى نظرة إشفاق وفيها قليل من الغنج والابتسامة، أمّا أنا فأعطيتك ما يتمناه كل رجل مع المرأة.

- ولكن كاترين بنظرتها المشحونة بألف عاطفة كانت

تمنحني قدرة العودة إلى الوراء، هناك الزمن الذي رأيت في أقبيته كيف تنام الأجساد في لحظة الإلهام مع نغم الموسيقى ولذة الاستحمام، ولأنكر عن فضل هذه المشاعر ليعود إليك، فأنتِ من أيقظ في هاجس الانتباه إلى طاقة الجسد الأنثوي وقدرته على منحي هاجس الابتكار، ولولاك يا وداد لما ذهبت إلى الكتب والقصائد والروايات، فمع كل قصة عاطفية أقرأها يطلّ وجهك ليمتزج مع الحوار ووجوه الشخصيات، حتى أفترض كل عاشق أنا، وكل عاشقة أنت.

- وها أنت تكرمني بأن تشارك معي امرأة أخرى، ومهما تمنحكَ، فإنَّ أي امرأة لا تقبل بضرة لها، خاصة لحظة المشاركة، أنت قلت لي مرة وأنت تواسيني بموت زوجي في جبهة الحرب، أتمنى لك آخرَ يطفئ فيك رغبتك العجيبة لمن تحبينه، فكيف لمن تمتلك مثل هذه الرغبة لترغب بامرأة أخرى مع من تود، وكيف ترضى لامرأة لا تكتمل شهوتها إلا مع ملك لتكون معك لمجرد أنّك تبغي فيها مساواة بهجتك مع بهجة الملوك، وهذا غير منطقي، فأنت سومري فقير، وليس لك سوى السومرية الفقيرة، أما هذه المرأة فهي تأتي لقصد ما، قد لا أعرفه لكنك تدركه لأنكَ متعلم.

- ربما لأنها ربطت طفولتي بصباي، وكانت بليلتها الساحرة مع الملك فتحت لي آفاقاً رسمت عليها خطاي لأهتم بسومر وكل طقوسها، من موائد الآلهة إلى سهرات الحانات في أور، لهذا بقيت

كاترين تمثل بالنسبة لي بداية مرحلة إلى شيء غرس في ذاكرتي شتلات ورد لتاريخ أحببته من سعال أبي ودورانه الليلي حول المقابر والأقبية خشية سرقتها من قبل لصوص الآثار، وكنت معه أتمدد على التراب البارد في ليل الصيف لتضربني نسائم التخيل فتهبط عشتار لتمارس معي ذات غواية الاستحمام التي كنا نمارسها معا، وربما كانت عشتار هي ملهمة الليل وكاترين ملهمة النهار، وها أنا أرحمك وأستعيد معك واحدة فقط.

ـ هل تريد أن نكون ثلاثة؟!

ـ في تخيلي لواقع أزمنة أحبها هناك الكثيرات، لكنكِ أنتِ وكاترين أنتما الواقع لأنني شممتُ جسدك بعنف السرير، وهي شممت جسدها بعنف النظرة.

ـ ولكن السرير أقرب لواقع المودة بين جسدين، لهذا ما زلت أقول إني أكثر منها حظوة لأكون قريبة منك.

ـ وكاترين أحتاجها أيضاً، ربما لأن هاجسها في اللحظة الخلوة معك ملك يثير فيَّ أشياء اعتقد أنها قادرة لتحفظني من مفاجآت الحرب ولا أموت، إن في جسدها بقايا لنظرات أنو، ذلك الذي يحفظ البشر من النوائب، لهذا حين بكامل شوقي معها أحس بشيء من الاطمئنان لأمضي مع هذا الوقت الصعب دون أن يترك فيَّ من جروحه ندبة أو علامة، وداد الحرب، هاجس يرعب عاطفة كل من تعود أن تكون نظرة المرأة نافذة له، أو من يريد أن يعود إلى بيته ليطعم عائلته وذويه الرغيف بكرامة وحب ويعيش

لحظاتها البشرية بهدوء كما يعيشها خلق الله في بقية الأرض، ولهذا أجد في هذا الاستمناء والتشوق إليكن وفي الحمام فقط تعويذة لتحفظني من كل ما يمكن أن تأتي به الحرب من ويلات لاسيما أنّني فقدت أمس صديقاً نحرت عنقه الشظية ومازال سريره فارغاً يحتضن دموعنا ونحن نشتاق إليه، وفي الغد سيكون مصير آخر ولا أعرف ما هو.

ـ ألم تقل لي يوم سرقت الحرب زوجي، إن الله يختار ولا أحد غيره، فمن أين جئت بهذا الذي اسمه أنو..؟

ـ من أحلام أجدادي..قبل أن تهبط عليهم رسائل السماوات، ويهتدون إلى اله واحد ، أما قبل ذلك، فكانت أحلامهم مشتتة بين آلهة كثر، نحن نستعيدهم الآن لصناعة فتنة نبتغيها عن جمال الأثر الذي تركوه، أما الآن فالإيمان المطلق للإله الواحد، الله الملك ، ذالطوبى للرحماء لأنهم يرحمون.

قالت كاترين وقد كانت تنظر بإعجاب لأطروحات المرأة: طوبى للرحماء فإنّهم يرحمون، هذا من إنجيل يسوع، سعيدة لأنك تستشهد فيه لتقنع هذه السيدة بأن نكون أنا وهي في مكان قد يبعد عنك شبح مصيبة الحرب .

ـ أنت طارئة يا سيدتي على أحلامه، فليس لظهيرة واحدة، وليلة تلصص إلى ما كان يجري في الحمام بينك وبين الملك كافية لتبعده عني، أنا الذي جعلته يشب قبل أوانه، وأن يعطي ما لم يعطه أحد في عمره، لهذا لن تكون سواي من تبعد عنه هذا الشبح.

ـ وأنا جعلته يقفز من صباه إلى الكتابة بنظرة واحدة، وهذا بمقدوره المعرفي يوازي ألف ساعة استحمام ومواددة.

ـ قد أفهم بالضبط قصدك، أنا امرأة علمتها حياتها أن تعطي لمن تريد، وهذا الذي نشاركه الآن لحظة الهلع مما تجلبه الحرب رأيت فيه ما لم أره في أي رجل رغم صغر عمره وطفولته، فقد كانت له نظرة تساوي نصل سكين، لهذا حتى في جسده الطفولي النحيف كانت له معي مشاجرة تشبه تلك التي كان يفعلها معي زوجي حين يعود من الحرب بعد غيبة شهر، لهذا يوم أكون مع زوجي، أحاول أن أبعد طيف هذا الطيف، وأستغفر الله، وأقول إنها نزوة ذكرى، ولكن عندما سرقته الحرب ذات ليلة ماطرة وطرقوا باب البيت مع نعشه، وقالوا: خذيه ليدفن في مقابر الشهداء، فقد استشهد في الحرب، في هذه اللحظة ونعش زوجي لم ينزلوه الأرض جاء وجهه الطفل الذي كان يعوم معي في بهجة الصابون والماء ليطل وقد كنت قد نسيته مع واجبات الأسرة الجديدة، وحتى إنه كان يعلم، فبعد ثلاثة أيام أطلَّ صوته عبر الهاتف ليعزيني، ويقول: تلك خيارات الله، وعلينا تقبلها .ومنذ نبرة الصوت الأولى عاد سلمان إليَّ بكامل النعومة والذكورة الطفولية لذلك الأمس البعيد، ولم أكن اعرف بعد ما كان يهوى ويتعلم ويفكر، لأنني ببساطة شعرت بأنه ما زال يحنّ لتلك الساعات المثيرة، تلك التي لم تمحُها أي نظرة غزل لشاب يتمنى وأنا أعود من المدرسة مع حقيبتي.

ـ في حالة كهذه أتمنى أن نترك له حرية حجم ما يتمناه مع أي واحدة ما دام هو في وضع حرج كهذا، بالنسبة لي تكاد هذه اللحظة أن تكون بمستوى جمالية تلك اللحظات التي عشتها في ذلك المكان الملكي حيث تمتلئ روح الأنثى المشتهية بكل اللحظات البهية التي يكون الشرق مصدر سحرها، وهي غائبة عن الغرب تماما، أن تستعيد واحدة مثلي جاءت تفتش في الطين عن بقايا دمى وحروف لتجد ملكاً في انتظارها ويعيش معها بهجة الاستحمام والموسيقى وكل عاطفة نبيلة، إن لكل استحمام طعمه الخاص، لكن عندما تكون أور محطة لذلك المكان الشهي فإنَّ الأمر في خارج حدود ما يتمناه البشر، ولكنه حدث معي، وسأكون سعيدة أن تكون لي محطة مع سومري وفي ذات الوضع الذي كنت فيه أيام ما كان سلمان صبياً صغيراً يحمل في عينيه شعاع الرجل المتلهف، وسعادة تكمن معه الآن في أنَّه ليس متلهفاً فقط، بل جندياً صعب المراس يتمنى ما يخشى أن يتمناه أي جندي في جبهة الحرب ليجلب معه امرأتين ويستحممن معه بالرغم من ضوابط العسكرية التي لا ترحم فعلاً كهذا، ولكن نحن نعيش الحرب لنتحدى لا لنموت، وهذا التحدي يجعلني لا أخشى حتى الشظايا، ولا أتمنى عودة إلى علب الليل اللندنية، هنا في أحضان سلمان أحلى ليل.

ـ وليلي أنا أين تكون حلاوته، ليس هناك امرأة ترضى أن تشاركها واحدة برجل في سرير واحد.

ـ في سرير الريش لا يجوز، ولكن في سرير الماء المشاركة جائزة، لأن الماء فيه وكما في المطر لا يهطل على اثنين، بل يهطل على رؤوس الجميع، مثلما يفعل الآن، فتكون البهجة المشتركة لاثنتين مع رجل واجبة، لاسيما في الحرب .

ـ كلما أتذكر الحرب، اتخيل واحدة من الأمكنة التي تفقدنا الأمان، ليس لأنها أخذت زوجي مني، بل لأنها حتى في استعادة طقس عشق قديم، أجدها غير عادلة عندما تكونين أنتِ معي على واحد أردته منذ طفولته لي وحدي .سأُسمعك ماذا كتب لي هذا الجندي الذي لا زلت لا أمتلك قناعة أن تكوني معي في مكان تمناه مرة لأجلي وكتبه بقصيدة ، أن أكون وحدي من أعيد صفاء روحه وهدوء قلقه وخوفه من مصائر الحرب، ثم علقي على ما تسمعيه:

« وردة لها بهاء التوابل تسقط على إناء الشهوة قنابل من قبلات حارة، تمشي بحذاء السندريلا الريفية وتصل لحظة الصفنة على أريكة مقهى، تفكر في مارة الشارع، في دوي المدافع وليل الشام المفتوح على خواطر الذاهبين لأقدار الوحشة والسحت في بلاد كان يلهو على أعتاب طيشها الرشيد والمتوكل وأبو نؤاس.

والآن الليل فيها يشتهي بساطيل الجند وظلام الفزع المفاجئ حين تداهمك رؤى الدبابات وتسأل عن طفل كان يلهو في حاضنة الخوف، تسأل عن بطيخ أفغاني في ثلاجة بيتك، عن امرأة كنت تحبها وهاجرت إلى بنجوين.تشاركك بهجة المستحم تحت ضوء

الشمس، فتتذكر بهجة أور وأجساد نساءها العاجية.

تتذكر الحب برغوة الصابون ونعومة حلمة النهد وسعادة الشفتين في سوط اللسان الأحمر.

تتذكر كل طفولة الرغيف وصدر وداد.

فتعزف نشيد سلام الرومانسية وبهجة ما كنت أمنحك إياه.

هناك كان العالم كله ثلجاً وعصيدة.

نأكلها فيغيب الصوم فينا ونتذكر سحر العراق...

أيتها الحرب..في صيفك الملتهب بالنعوش ودموع أمهاتنا..

لا أريد نزهة في اللوفر.. بل ساعة استحمام ثلجية مع واحدة أودها..

هناك في الأرض التي نصفها قمح والنصف الآخر دموع.. ».

هل سمعتِ، ثمة وداد واحدة في القصيدة، وليس فيها اسم لكاترين، قد لا يستطيع نطقها، ولكني نيابة عنه أطلب منك مغادرة المكان ..

ـ قبل الرد والتعليق على طلبك وأعلق على ما كتبه إليك، اسمعي ما كتب هو لي ذات مساء ومن هذا المكان..

« هل تدركين معنى أن نكون.

الكون المزركش مثل القاشان الأزرق على ضريح صوفي مصلوب بسبب كرهه للنازية والدولار وخواطر الدبابة ..أن نكون كما نحن.. ألواحاً من طين الرغبة والموسيقى.

لا نلبس سوى فساتين الأساطير ولا نمارس الحب سوى على

فراش آلهة أور واريدو ولكش.

وحين تدعونا الحرب جنوداً .. معنا تُمضين وقت الرايا

وتحت حلمة نهد العنب أكتب مذكرات لم يكتبها حتى نابليون، فيها ألف حكاية عن التكوين وهاجسي العذب .. الهاجس الذي صنع الحضارة وأعواد المشانق...

وصنع تلك الليلة المدهشة في الحمام مع الملك السومري..

أنت ساحرة الطيف اللاتيني..لقد أيقظتِ في الصبي المنابع الجديدة. .فتعالي لتردمي منابع الحرب القديمة..تعالي حتى لو بعربة الجنرال مود المصفحة..

لقد تعبت من النوم مع الوسادة، وأريد واحدة كتلك التي غطت فيها أنفاسك بشخير الحرب مع الملك الموسيقار شولكي...

ذات يوم، بلحظة فائرة مثل قدح شاي وقبلة..سأجعلك تكتشفين..أنّ الذي يحدث هو بسبب تعكر مزاج فراشة...»

هل أعلق، هل أقبل بما تقترحينه لأغادر المكان، وهل هو قادر ليقول لي غادري، أو يقول لك غادري أنت بعد أن أضع هذا النص الذي كتبه إلي لأطلب منك المغادرة؟

لقد قلت لك نحن متعادلتين فيه ولم تقتنعي.

في الغرب نقرب القناعة إلى أقرب حدود المنطق، وما كتبه إليَّ كان منطقاً لروح تحتاج إليَّ بوعي وليس بشهوة.

الآن، لدينا جندي يحتاج إلى اثنتين في استحمام واحد، ليس لنا سوى أن نترك الغيرة وشجار الكلام ونمارس معه ما يجعله ينسى

هذه الحرب، أنت بجنوبيتك وسومريتك، وأنا بهاجس العشق الذي أحمله للشرق منذ أول زيارة لي للقاعة السومرية في المتحف البريطاني، هناك رأيت وجوه الملوك وعشقتها وكان معها وجه سلمان.

ـ أنت شاهدته من خلال انعكاس حجر وهذا لا يكفي لخلق ما خلقته أنا فيه، لأني شاهدته في نضجه الأول كما خلقه الله، ولعبت معه الحب كما يلعبه أي حبيبين، غير أنه في شوقه إليك من خلال القصيدة، خلق لدي مبرراً لأشعر أنني مجروحة إزاء ما فعل، ولهذا سأغادر المكان وأتركه لك.

ـ إن غادرت أنا سأغادر أيضاً...

قلت وبحزن وخيبة: وأنا من يبقى لي؟

قالت كاترين: سأبقي لك قيثارة الملك شولكي لتعزف فيها وتنسى حرج الحرب.

قالت وداد: سأبقي لك كل ذكريات تلك الساعات الحلوة في خلوة الماء والبخار وعينيك اللتين لا تتوقفان عن الارتعاش يوم كنت لا تعرف أن تفعل شيئاً وأنت مع امرأة ناضجة .

قلت: هذا يعني أنني سأكون ضحية سهلة للحرب، فحين يفقد الجندي تعويذته يصبح في مهب الريح.

قالت وداد: أنا لا أحب أن أكون لرجل لديه تعويذتان.

قلت: سأظل ألاحق أطيافكما واستعديها بالقصائد، ولا بدَّ لواحدة أن تأتي، وإلا لن أستطيع أن أعيش هذا المنفى مع البارود

والخوف والثلج وسعال الجنود المدخنين.

قالت وداد: من تود أولاً لتأتي إليك.

قلت: التي تأتي بسرعة الضوء.

قالت: سأكون ضوء المسافة بين بنجوين وأور.

قالت كاترين: سأكون كومضة بين بنجوين ولندن.

قلت: عدت إلى حيرتي مرة أخرى، وستصلان بنفس الوقت، ويعود شجار المودة بينكما ثانية ولا أحصل على طقس استحمام أنعش فيه أملي من أن لا أكون ضحية حرب وأنفض عن جسدي غبار تعب اليوم وأستعيد نفسي وكأنني في أمسية أورية أعيش صخب وموسيقى مواسم أعياد القمر حين يزف نثار آلهة مدينة أور بهجته إلى أحلى عذارى المدينة.

سكنت الحيرة عيون المرأتين، وعادت لتتأمل الواحدة الأخرى، ثم تحركت أجفانهما صوب ابتسامة معبرة وكأنهما في النهاية شعرتا أن لا مناص ليكونا سوية مع هذا الجندي وعليهن أن يبدأن من الآن طقس المواصلة المشتركة، وسوية سيصبان الماء، ويدعكن رأسه وظهره وأفخاذه بالصابون والطيب، وسوية اقترين منه.

هو شعر بالرعشة اللذيذة وهن شعرن برغبات أخرى، استعاد فيها سلمان متعة الزمن الذي هاجُ فيه وماج، زمن الجسد واللوح والطفولة الجميلة .

كل واحدة بدأت، أما هو فبدأ عنده هيجان الروح وعلة التمني

والاستمناء المضاعف، قادتهُ أنامل كل واحدة إلى قشعريرة الذكرى وقراءة أزمنة العودة إلى الوراء، فعندما خلق الله آدم وحواء لم يخلق قرب عريهما من ستر سوى ورقة توت، ولكن هذه الورقة تحولت الآن إلى رصاصة، وسيف، وبيانات حرب.

انغمست كل واحدة بحركات مبتكرة في محاولة منهما لاستمالة جسده إليها، لكنه نجح في الموازنة بين اللهفتين.

وصار يقابل القبلة بأخرى مثلها وكذا العناق والابتسامة وأشياء أخرى، وعندما تسحبه واحدة إلى أخرى يستسلم بانقياد بطيء فهو يدرك أنّ التي سحب منها ستجره إليها بقوة أكبر، وهكذا يشعر سلمان بأنّ الود في بهجة حضارتين يعني انتصاراً لوجوده الشرقي وأنَّ الحرب لا يمكنها أن تتجرأ الآن وتسرق منه هذا الطقس الذي لم تشهده حتى حرب طروادة بالرغم من أن عريف الفصيل كان ينادي إليه لمجيء نوبة الحراسة، وفي كل مناداة يتأفف ويقول: لا أعرف كم سيطول حمامك هذا، فربما أنت تحمل كل غبار الجبل على جسدك.

قال سلمان وهو يرد عليه ويزاول مغامرة المتعة بالاستحمام مع جميلتين: بل حامل كل متعة هذا العالم.

وهاهو ينغمس بالمتعتين معا كما تنغمس قطعة الخبز بمرق الطماطم، فنأكل ليس قتلاً للجوع، بل نقاوم هذا المجهول الذي ستأتي به الليالي على شكل حرب مستعرة أو قتال بالسلاح الأبيض، ولأجل هذا أحاول أن أستعيد يقظة ما فيَّ من بهجة مع

هذه المنعة والضحكات أن أجد مكاني الأول، هناك في أور، حمام الدفء، وعاطفة النخل، وشهوة الطفل، وزفاف السمكة، هناك أهلي الذين جاءوا على شكل واحدة من أمنيات البواكير الحسية والجنسية والقدرية، وأخرى جاءت من هواجس عولمة كنا نتمناها، فليس أجمل من عاصمة الضباب لتكون محطة لفحولة الشرقيين ولتريهم أحقية نزول آدم على هذه الأرض، هناك في جنوب شجرة السدر والشهداء والماء المالح .

لأجل هذا وفي احتراق الحضن الدافئ، وأربعة حُلم من عسل النهد، وعنقين من عاج الهند، ولهفة من مساء بساتين أكد، تطل ذاكرة الأمس، تبحث عن أهلي البعيدين، أولئك الذين صنعوا أمسهم بأزهار الأساطير والسيوف والملاحم.

تحكمنا الذكريات بأقدار بعيدة، ولكي لا تغيب عن شاطئ المودة أحاول أن أجمعها في آنية من زجاج وأحتفظ فيها بخزنة قلبي. والحرب برغبة منا أو بدونها، هي واحدة من أجمل صناع الذكريات. إنّها كما يقولون « المملكة التي لا تصلح تيجانها على رؤوسنا وبالرغم من هذا نود في لحظة ما أن نكون عاشقين لها ومن رعاياها المخلصين ».

في الجندية وعالم الروابي العالية، والأسلاك الشائكة والثلج، ووسادة تمارس عليها تمني الممنوعات، كان لك دفتر تدون فيه يوميات ما تتصوره عيناك. الموت، طيران القطا، احتراق الشجر، ولادة النسمة من فم الوادي، سذاجة العرفاء عندما يعجزون عن

كتابة الرسائل إلى زوجاتهم وهم يتخيلون اللحظات الآسرة التي تستحم فيها عواطفهم بعطر الإجازة، فتكون أنت الكاتب، ومع كل هذه الأشياء يأتي طقسك الخاص، التوحد مع الهاجس السومري، وكأن الحرب لن يأتي اكتمالها إلا مع هذه المسافة بين التأريخ وهذا المكان الذي كلما حرك أصابعه مرت بينها الغيوم بصمت وخجل، وتعرت عاطفة الحلم على أجفانك التعبة كما ذلك العري الصافي في أمكنة الشهوة القصوى، في حمام (أبو ليرة) أو غرفة استحمام الزقورة، ومشى القطار، ونامت بيوت السلالات على أمل أن يجد جلجامش عشب الخلود ونتخلص من مطالبه القاسية وخاصة بعد أن رأى الدود ينخر في محجري صاحبه أنكيدو. ولأن التفاحة التي تقابل عشبة آدم في قصدها هي الفقدان الأول الذي تعرض إليه نبينا آدم (ع)، فقد كنا حتى ونحن في لحظة الصولة لاستعادة ومْمٍ ما، نظن أن ممكن الحرب قد ينتهي عندما يعثر جلجامش على ذلك العشب، وكنت أقول لرفاقي في بيت الحجر هذا: لا نستريح إلا عندما يستريح سيدي جلجامش..؟

اشتعل أوار الحرب ببطء كما السلاحف، ثم هاجت النيران كما ذلك البركان الذي دفن معه قارة اطلنطا في قاع المحيط، أخذت صفوة شباب سومر، وغاب بثراها همٌ شعري لم تصنع مثله أي حضارة، دفنت شهادات علمية، وذكور كانوا يرتقبون زفاف اللحظة في الإجازة القادمة، لكن المراد لا يتحقق، كما تقول

واحدة من الألواح: الهم الكبير، الذي يجعل الحرب أمنية الملك المذعور كي يتخلص من ضجره .

واحد من الأصدقاء قرأ اللوح وبكى وقال: إلهي خلفتنا لنكون ضحية الضجر، أي امتحان هذا، إن كانت دلمون لهم ولنا الحرب، فلماذا ولدت إنساناً ولم أولد شجرة !؟

قلت: هذا كفر؟

بكى وقال: للتو أنهيت صلاتي. هذا يأس!

بعد يومين اختارت شظية هاون عنق صديقي، وهاجر الربيئة، كما يهاجر السنونو دفء الجنوب ليذهب إلى الأراضي البعيدة..

في سومر الموت على هذه الشاكلة يمنحنا القدرة على تأليف الهاجس الصعب. أدركت ذلك وأنا أضع تصوراتي لحلم طفولتي، بين مدرك الحلم وبوابة التلقي.

كان الشجن المسكوب على عيني يولد صفاء العاطفة، والذي مات تتدرج أحلامه في اشتياق المدن المنسوبة للهواجس العظيمة، وكل عظيمة سيكون بيتها دلمون !

هناك يصف الخيال لحظة استحمام حواري الجنة مع الشهداء، بصور من انبهار يشده مذنب هائل من ضوء بتمايز لم تألفه العين، ألوان شتى رصفت فيها جدران حمامات دلمون، حيث بلاط المرجان يتداخل في عرق اللون مع موزايك يقترب من بريق الكحل، فيما يعطر الحجر بشذى نسائم عذبه تمنح المستحم بهجة التخيل ويمتلك دفء الماء ونشوة اليد التي تمسح على صدره فيشعر كما تتفتح

نوافذ الكون العميقة إلى فضاء لا ينتهي من النور، هناك تزاح كل هموم الأرض ولن تبقى سوى عيون الآباء والحبيبات معلقة على أجفان المستحمين فتتصاعد أبخرة الليمون وضحكات الموسيقى ونداء متكرر ليبقى في عبق هذا الطقس اللذيذ ما شاء له أن يبقى.

سأعود إلى سومر. ذلك المكان الذي خبأته في دفتر لتدوين الشجن الروحي، وكنت أفترض الوجد شكلاً لرغبة صوفية تجعلني أنسى آلام الحرب التي لا تحصى، وكان الهمس الذي أشغل يومي فيه عندما تهدأ البنادق وتعلن القمم هدنتها الخاصة.

أقرأ فيه، فأجد ما لم أتذكر أنني دونت مثل هذا، وأشاهد تخطيطاً لأناس لا يرتدون ما نرتدي نحن في نهار التعبئة والإنذار المسائي والصباحي، ولباسهم قصير، وأكتافهم عارية.

قلت لأحدهم: ما الذي أتى بك إلى دفتري؟ وأنا لا أشاهدك إلا في واجهة صناديق المتاحف الزجاجية. أنت من سومر، وسومر تبتعد عنا سبعة آلاف عام وأكثر.

قال: نحن نأتي مع الشجن والعاطفة والدمعة التي تسقط من أجل من نحرت عنقه الشظية.

- ولكني حولت الدمعة إلى قصيدة. ولم أحولها إلى زمن كي تأتي أنت.

- أتيت لأني ولدت من رحم تلك القصيدة التي كتبتها.

- لم أذكرك فيها، قلت وقتها: ليت حزني يصير نورساً يأخذني

إلى المريخ. لأمارس عزلة النسيان .

ـ ولقد أوصلك النورس إلى هناك، ولأننا من سكان هذا الكوكب فلقد أيقظنا مجيئك، وعندما عدت، عدنا معك، لنبحث عن أجداد تائهين لنا.

وقتها تذكرت معلومة من معلومات الخيال العلمي تقول: إن واحدة من افتراضات الأصول السومرية تقول إنهم جاءوا من كوكب آخر، وربما كوكب المريخ؟

قلت: أهلاً بك أيها المريخي.

قال: قل أهلاً بك أيها السومري.

يا لهذه الحرب. إنها تقودني إلى متاهات عميقة، فأنا في كل مرة أجاهر بسومريتي، وحين يعلمون بحوارية الدفتر، سيقولون: أيها الجندي المريخي، لماذا لا تغادر الربيئة الآن وتذهب إلى كوكبك المريخ وتتخلص من هذه الحرب القاسية؟

قال السومري المرسوم في دفتر خواطري، وكانت مهنته كاهن في معبد: إنّ سومر تتبع من مرئي لا يشاهد، لهذا وعت بشفافيتها كل جديد، وهي اليوم محط أنظار العيون وسرّ الميثولوجيا الدائم.

قلت: وتعرف هذا المصطلح؟

ـ وعينا دائم كالشمس؟

ـ وللحرب ماذا تعي؟

ـ موتك، وسرمدية في الكوكب الذي تنتمي إليه: الكوكب الأحمر.

- المريخ؟

- نعم. إنّ سومر تنتمي إلى مألوف من كون آخر، وهي أتت إلى الأرض بإرادة الآلهة، وذهبت منها بذات الإرادة،وبالرغم من أن المشهد كان مأساوياً، ولكنه كان قدراً.

- بعد احتراق أور هل عدتم إلى المريخ؟

- أبداً، الأرض كوكب يخلق العشق، فكيف نفارقه؟

- ويخلق الحرب أيضاً.

- سومر في بعض من وعيها، كانت الحرب هي واحداً من الأحلام القسرية التي تصنعها شهوات الملوك.

- تماماً مثل هذه الحرب.

- في معايير الأزمنة والأمكنة، للحرب قلب واحد.

- ولها كوكب واحد. ولكني لا أريد أن أموت.

- الإرادات لا ترغم المقدر على أن يبتعد عن سير وهو ينتقي من سومر أحلامه.

- وهل أنا حلم؟

- نعم أنت حلم.

كانت النجوم قد أنزلت فتائل الضوء من أحداقها عندما اكتشفت أنني نائم وسط الحمام دون المرأتين. استيقظت وقد تأخرت عن واجب حراسة سور الساتر الذي يحيط بربيتنا. ما جرى كان حلماً لرؤى قديمة. الحرب انتهت منذ عامين.

إذن أنا حيّ، وما قاله رجل المريخ كان مجرد دعابة. ورغم هذا

أشعر بوخزة قوية في منطقة القلب، ربما هي بداية شد عضلي أو جلطة. إلهي أين أجد طبيباً سومرياً ليسعفني، وأي مركبة ستأخذني إلى المريخ لأدخل المستشفى هناك؟

صوت واحد، أطل من وسادة الحلم، هو صوت وداد:

لا مشفى لعاشق مثلك سوى دفء الماء، ونعومة الجسد، وصفارة القطار.....

صوت آخر هو صوت كاترين، همس بلهجته اللندنية الناعمة: لا تخف، إن شوقك سيبقى، ولكنه هذه المرة لن يكون مرتدياً عاطفته السومرية، ولن تكون أور مصدراً لدهشتك وأنت تتأمل ما ملكت من بياض الجسد والعسل وأنا أشم في رحيق الملك لهفتي لكلّ ما تملكه الأطلال والقبور، بل سيسكنك المنفى، وتحاول أن تعيد رجولة ما فعلته معنا في لحظة الاستحمام بمساء الحرب، مع واحدة أخرى، ولكن في زمن تحمل فيه أمتعة الدموع وتهاجر بعيداً عن عطاس الدبابات والملثمين...

الفصل الرابع

انتهت حربنا الأولى مع الغرب عام ١٩٩١، وبمناسبة الذكرى العاشرة لهذه الحرب سمحت السفارة الفرنسية لمن يحب رامبو وهيجو وميشيل ديغي من العراقيين آن يدخلوا أراضيها بتأشيرة سفر سياحية ولمدة أسبوع واحد على أن تكون باريس هي المدينة الوحيدة التي يزورونها، وثمة شرط آخر فرضته الحكومة الموقرة، غرامة ألف فرنك على كل من يطلق من المشار إليهم أعلاه حسرة أمام لوح سومري أو آشوري على جدران اللوفر، ثم عادت وأعلنت بأن الأجنحة التي تحوي آثار بلاد الرافدين ليس لهم الحقّ بزيارتها، فالأمم المتحدة لم تسمح بعد بذلك. ويبدو أن فقرة من عقوياتها تحرم على العراقي أن يمتع عينيه بمسلة حمورابي أو يتطلع ملياً بوجوه آلهة سومر ويتبرك بها، فربما يعيد ذلك جلجامش إلى الأرض ومعه يعاد الطوفان فتغرق نيويورك، وبعد أن جففت دموع أمي وأقنعتها أن رؤية باريس أجمل بكثير من حاجة معدتي إلى البروتين كي تبيع ذخيرة العمر من المخشلات، فكان أن خطفت قدميَّ إلى شارع الكفاح في العاصمة واشتريت عشرة أوراق من تلك التي طبع عليها وجه جورج واشنطن، وقد دونت فوق الهامة الصلعاء

عبارة "توكلنا على الله ".

أنتم تعرفون أنَّ باريس حلم أي إنسان وهي أكثر مدن الأرض التي تزورني في أحلامي ثم تأتي بعدها المدينة التي قطعت فيها القابلة المأذونة حبلي السري وقالت لأمي المتألمة:"خذيه فعندما يكبر سوف يجمع في حقيبته القصائد والشظايا وحنين سفر إلى مدينة اسمها باريس."أمي وبفطرة لم تنس هذا الاسم أبداً، وكانت تظنها مقاماً لولي حفظني من الإصابة بفقر الدم الذي أصبت به عندما كانت حاملاً بي . وعندما تسأل أبناء المحلة عن اتجاه المدينة وأين تقع لتزور وليها، كانوا يضحكون منها ويقولون لها:"يا أم ..عندما يكبر هو سيرشدك إليها." ذات يوم عندما أخبرتها أني بلغت إنني سأزور هذه المدينة؟

قالت: "الآن حان موعد نذر دعت لك به مولدتك، ستزور الولي الذي يسكن المدينة التي ذكرتها يوم ولادتك".

تصورت أنها تقصد مقام الخضر في السماوة، أو مقام أبي الحسنين في النجف، أو ربما أأئمة كربلاء أو الجوادين أو سعيد بن جبير، أو سيدنا أحمد الرفاعي، ولكنها قالت:"لقد زرتهم كلهم عليهم السلام، فقط بقي لنا أن نزور الولي الذي يسكن باريس.." ملأت فمي قهقهة عالية حتى دمعت عيناي. أمي تعجبت ونهرتني كي لا يعاقبني الولي، ولكني في الوقت نفسه تعجبت من فراسة مولدتي وقدرتها على قراءة طالعي، فربما كانت عيون موناليزا مرسومة في عيني، أو ربما رأت برج إيفل شاهقاً على

هامتي الصغيرة . ولكن من أين عرفت موناليزا أو إيفل؟ عموماً عانقت أمي وكانت بأعوامها الثمانين وجسدها الضعيف في أحضاني مثل قطعة قماش بالية. شعرت معها برأفة هائلة عليها، وهمست لها وقد بللت دموعي صوان أذنها: "سأحقق رغبتك وسأزور الولي الذي يسكن باريس. نعم سأزوره، وسأتذكرك بعنف القبلة والعناق، هذا الذي عشته يوم تكرمت علي بصناعة دهشتي الأولى وأخذتني معك لحمام النساء، وحتما هناك سأبحث عن حمام آخر أدفن فيه شهوة المودة، وأنتقم من كل الأشياء التي تحدث الآن.

قالت :حسن، لا تنس أن تجلب لي "علك" من شباكه تريني إياه لأصدق أنك وفيت بنذري .

وهكذا ارتبطت باريس بحياتي وبدأت تضيء في ذاكرتي ليلاً بهيجاً يعيد إلي الرغبات القديمة كما تعاد المصابيح إلى أعمدة الليل المظلم، رغبة في امرأة أتمنى معانقتها تحت الفراش . أو أستحم معها في حمام ساونا، وموسيقى فرنسية تنسي معدتي شوائب كل الأشياء الغريبة التي توزع داخل دقيق بطاقة التموين.

اليوم أنا أكثركم سعادة وحقيبتي مليئة بدموع أمي، ومعها موافقة السفر التي حصلت عليها وزوج جوارب وملابس داخلية جاهدت أمي كثيراً بإزالة صفرة غريبة عنها، وكتاب لعلي الشوك عن علاقة التوراة بأساطيرنا الشرقية ومعتقداتنا الدينية، وقد أغرى غلافها الجميل مضيفة الطائرة، وكانت شقراء بلون أساور جدتي يوم أخرجتها من صندوقها المنجم لتتذكر عرسها.

أعرتها الكتاب، ولكنها أعادته لأنه مكتوب باللغة العربية، وهذا لا يهمها مهما كان موضوعه . جليسي الذي فهم معنى الكتاب من عنوانه ترجم لها المحتوى فقالت: "أوه يوسف، كم أشتاق لأعانقه لليلة واحدة . امرأة العزيز لم تغره جيداً، ولم توفر له حماماً ساخناً معطراً بالورد، أنا أعرف كيف أغريه".

غادرتنا إلى راكب آخر، طلب كأساً مثلجاً من الويسكي . أنا تمنيت لكنها عرفت جنسيتي ففضلت أن تقدم لي طبقاً من البيض المسلوق بحجة أننا محاصرون ونحتاج إلى بروتين أكثر من حاجتي إلى الويسكي، وعلى مضض حشرت صفار البيض بين أسناني، وأنا أتمتم غاضباً وأشرح لها بعصبية أن فوق سطح بيتنا دزينة من الدجاج البياض .

ردّت: "ورغم هذا ينبغي أن تأكل البيض فقط." معتقدة أنني ربما أحاول خطف الطائرة عندما يسكن المشروب جوفي . قلت: "لقد انتهت الكراهية منذ عشرة أعوام، وينبغي أن يكون السلام هاجسنا الوحيد".

قالت: "أتمنى ذلك ولكن الأمر يقول: لا تعط الخمر لراكب من بلدان الشرق الأوسط، خصوصاً العراق وفلسطين".

تصفحت كتاب على الشوك . كان كل ما هو مدون فيه عن الذي حدث فوق أرض الرافدين وكنعان . شرحت لها بعض المعاني لما جاء فيه: "الله بدأ خطواته هنا، وآدم وقت النزول استظل بشجرة موجودة الآن في جنوب بلادي .. إبراهيم سيد ملتنا جميعاً

ولد في مدينتي، في أور الكلدانيين يا سيدتي". في أور عرفت الحضارة أول نظافتها وبنت حمامات لكلا الجنسين، قبل أن تعيش البشرية متعة أن تستحم وتسمع من بعيد نغم موسيقى أول عازفة في الكون.

- أوه .. أور لا شيء في أور الآن سوى الغبار، وما كان جميلاً حملناه إلينا. ثلاثة آلاف عام لم ينتبه أي منكم إلى قيثارة أور ورايتها حتى أرسلتنا السماء إليها وكشفنا النقاب عن أجدادكم الذين رفضوا أن يظلوا معكم، وفضلوا متاحفنا، لتكون بيوتهم جديدة ويزورهم اليوم ملايين البشر ليقتلوا وحشتهم ولينسوهم رطوبة قبورهم الملكية .

تعجبت وتساءلت، ربما كان والدها منقباً أو لص آثار، أو جدها واحداً من قناصل فرنسا الذين بدأوا في القرن التاسع عشر بشحن آثارنا إلى بلادهم التي اشتروها من الأعراب بأبخس الأثمان .

قرأت تسأؤلي وقالت لمن يترجم: "قل له لست من أولئك الذين يفكر بهم . كنت دليلة سياحية في اللوفر ".

أسعدتني إجابتها ولسوف أرمي عليها تعويذة كاترين، ووداد في آخر مودة لي معهما في طقس الاستحمام في ذات مساء حرب كي تقبل بصحبتي، وأنا أزور اللوفر . وبفضلها سأنسل كسارق لأرى التراث الهائل لحضارتي الذي أسكنوه مرغماً على جدران متاحفهم .

قالت بعد أن عرفت ما في رأسي، وكأنها عرافة: "حسن

سأكون مرشدتك .إن في عينيك سحراً جائعاً ويبدو أنك سليل الأمير النحيف أور نمو . إن جسده يذكرني برغبة الأنثى لمضاجعة العشب، وكم تأملته في ليالي الوحدة، وتمنيت أن أنام معه".

تذكرت، لحظة الدفء التي عاشتها كاترين مع الملك السومري، ولكنه حفيد لمن تتمناه مضيفة الطائرة، وبالرغم من هذا شهوة ملوك سومر واحدة .

وتساءلت مرة أخرى: لماذا الجرمانيات يشتهين أمراء سومر برغبة عجيبة؟ وربطت هذا بالعجز الجنسي لرجال الآثار.

قالت وكأنها عرفت ما كان يجري في تلك الغرفة العليا من مودة فاضحة وغرق:" كاترين لم تخطئ إذن عندما منحت الملك السومري ليلة حمراء."

ابتسم جليسي وقال بمكر:"امنحيه إذن ما منحته كاترين فهو سومري أيضاً".

طفحت خطوط حمر على خديها، وتحرك كتفاها العريضان بدلال لذيذ، ومن عينيَّ شعَّ بريق قاس أوقف عدادات حجرة القيادة فأضيء مصباح الإنذار، وأصاب الركاب الخوف والذعر، وصوب حرّاس الطائرات مسدساتهم صوبي، وكاد ربان الطائرة أن يتصل بأقرب برج مراقبة مبلغاً أن طائرته تتعرض لقرصنة جوية. رفعت يدي ووقفت وقلت لشاهري السلاح:" ما الذي يحدث؟"، قال أحدهم: "ما هذا الضوء الذي يشع من عينيك؟ هل هو سلاح ليزر؟"، ضحكت وقلت:"إنه ليزر نسائي كعطر الشانيل الذي

تغري به كاترين دينوف أنوف المخرجين فيتهافتون لتوقيع العقود معها."

ضحكت هي، الحراس ضحكوا، الركاب قهقهوا ببراءة. أطفئ المصباح الأحمر وقائد الطائرة تحدث بالمذياع معتذراً، وهي أشفقت على ذعري بعد أن تأكدت أن كاترين لا بد أن تتعرى مرة أخرى لأمير سومري، ولكن ليس في الغرفة الإلهية في قمة زقورة أور بل في شقة صغيرة بالجادة – ١٢٧روج ليسيه -ومثل قداس أطلق المذياع موسيقى منظمة بآلات نحاسية ليعلن بعد ذلك أننا الآن فوق البر الفرنسي، وأننا عندما نزيح ستارة النافذة سنرى مرسيليا تحتنا، وليغامر أحدنا ويمد يده ليلتقط زجاجة خمر من حاناتها الأسطورية وقد فعل الجميع وأنا معهم.الكل عادت بيده زجاجة كونياك، وأنا لم تعد بيدي سوى تفاحة هائلة الحجم مع ورقة تقول "لأنك لم تذق التفاح منذ أعوام".

تذكرت كيف غامرت ذات مساء متحدياً توصيات أمي الصارمة بعدم الميل إلى الجنون وتلبية ما تراه في الصور كسؤالها عن الموز والتفاح وأجبان البقرة الضاحكة، واشتريت لها تفاحة حمراء بخمسمائة دينار، وخلسة قدتها إلى السطح، وأدخلتها معي إلى قن الدجاج، وقلت لها :

"خذي، تذوقي ما لم يتذوقه اليوم سوى أبناء النبلاء ومداولي أوراق العملات الصعبة ومصلحي السيارات والحلاقين". بهرها اللون الأحمر فقضمت قطعة كبيرة وبلذة عجيبة لاكت قطعة

التفاح ولأن أسنانها لم تتعود على الطعم الطيب للتفاح أصيبت بنوع من رد الفعل، ورمت بقايا التفاح إلى الديك الطيب الذي كان يرمقنا بنظرات عدوانية، لعدم دعوتنا إياه للمشاركة في هذه الوليمة الفاخرة، وبخيلاء الفرسان رفع الديك عرفه ونفش ريشه وتقدم ليأكل التفاحة نقراً .

هذه قصتي مع التفاح، ولا تشبه قصة آدم معها، وربما عرف بها أهل مرسيليا، فأرادوا إعادة الملهاة فأرسلوا هذه التفاحة التي لم أقضمها كي لا يغضب صوت أسناني حرس الطائرة، ويرمى بي من الطائرة إلى الأرض مثلما رمي النبي يوم عصى أمر ربه، وأكل التفاحة .

قلت: سأحتفظ بها للذكرى .

وها هو برج إيفل يلوح في الأفق الضبابي لواحد من أيام أيلول، شيخاً حديدياً هائلاً ينتصب وسط عمران غريب لتصاميم القرن الحادي والعشرين .

إذن ها هي باريس أيها الولد المهذب، وها هي المضيفة الجميلة. الدجاجة الملونة وبيضها المسلوق وصدرها الرخامي الفاخر وشفتاها المتلاصقتان كصفحتي كتاب جديد.

إن عينيها تدعوانك لوعد قطعته على نفسها، بعد أن وصلت، واكتشفت أنك لست إرهابياً، وإنما أمير سومري دفعتك إليها رغبتها ليوسف فكنت أنت البديل، السومري الأسمر، بشعره المجعد ونظراته المشعة برغبات ألف منزل جائع، ولأنها لم تسمح

لذاكرتها بالتساؤل كيف استطاع الوصول إلى باريس، حملت جسدها وحقيبتها بعد أن دست عنوان شقتها في يدي . ابتسم جليسي وقال:"إن لك بختاً لم أره في غيرك من البشر. ألف سفرة ولم تنظر إلي، يا لسحر المدينة التي تسكن. إنها حقاً من المدن التي جبل الله طينها بيديه وصار أبناؤها محظوظين .

قلت: "أي حظ ونحن محرومون حتى من رؤية أجدادنا المحنطين في صناديق الزجاج في اللوفر؟ "

قالت:"ستراهم، وسترى ما يجعلك سعيداً، ستراني أنا."

قال جليسي:"قلما أحسد شخصاً، أنا مليونير وأنت فقير، ورغم هذا أحسدك، فأنت الآن أغنى مني بكثير، ولو أرادت هذه الحسناء لكتبت لها شيكاً بمليون فرنك . يبدو أن في صدرك الأسمر خزانة بنك"انترا " أنتم منذ أول أيام الخلق صنع الله أجسادكم من ذهب رغم أن بطونكم لم تذق طراوة نستلة " المارس"عموماً سوف تتذوق بدلا عنها القيمر والنبيذ والستن الأحمر . تذكرني يا رفيقي وليذهب مالي إلى الجحيم . صدّق من قال:"إن القلب أعمى".

هنا تداركت ما يحدث، فأخضعت الأمر إلى السحر الذي نملكه من جنوبيتنا، من الرقم المبعثرة في طرقات مقابرنا المقدسة: أور، اريدو، لكش، من تعاويذ آلهتنا ومن دموع جداتنا يوم دعين على طائرات الشبح لتتحول إلى بوم ينعق على شاشات التلفاز، ومن صمت أبي وهو ينظر إلى جسده العاجز، وقد لفته السنون الطوال

وليرقد على فراشه القطني يتأوه من الألم، ومن أشياء كثيرة. ولد ذلك البريق الذي اخترق أسوار حصانتها، ولتمنحني كل شيء، ولكني أريد شيئاً واحداً. باريس حيث تقيم موناليزا وقصائد أول شاعر سومري وحيث تقيم أحلامي، وبعد هذا سأعود إلى أمي، وأقسم لها بتفسير الجلالين ومقام الخضر أنني لم أحتضن امرأة حتى مع تلك المرأة الهائلة التي أعجبتها سمرتي وغمزت لي بحاجبين من الشمع، وعندما سألت عنها قالوا: "إنها زوجة رئيس بلدية باريس". فهربت مذعوراً لتتلقفني يد مضيفتي وتقول: "هيا، هذا هو اللوفر أمامنا، وبخطوات مرتعشة دلفت إلى الممر المرمري من خلال واجهة الزجاج المحصنة لتطالعني الوجوه ورسوم حية وميتة، سعيدة وحزينة. نصب واقفة وأخرى جالسة لتستريح من نظرات الزائرين مع حشد كبير من سواح يابانيين. أخذت بيد مضيفتي وتفرجت .

كان كل شيء جميلاً وساحراً . وآثار بلدي بدت نظيفة ومرتبة حتى أن الكؤوس النذرية لم تزل تحمل بعض قطرات نبيذ ملوك سومر وبابل فيما ظلت طريةً أجفانُ أميرات ومغنيات سومر وهن يرتدين الأثواب ذات الأكتاف العارية وهن يتهيأن للدخول مع الملك إلى حمامه المعطر بشذى المقطوعات الموسيقية وسحر وطاقة ما يملك من مداعبة فخذيه وأصابعه وصوته الرقيق إشارات عينيه الطفولية، وكان الدليل يشرح ويتحدث عن كل ما يملك من معلومات في ساعة واحدة . أما أنا فأستطيع الحديث سنة كاملة عن تلك الأشياء التي أيقظت في العالم الشعور بالحرية والحب

والحرب أيضاً . كانت تنظر إلى عيني الغارقتين في المشاهد فتتلذذ بدهشتي وتشد على أصابعي فأُصاب بنشوة رجولية عابرة أود بها أن أسحبها إلى زاوية مظلمة لأروي ظمأ الشوق لملاقاة أجدادي، لكني أتذكر زوجتي وأطفالي وأمي، فيبرد الجزء الأسفل من جسدي وتتحول التي تعصر في أنوثتها إلى دمية .واصلت سيري مع شعور بالغضب من جانبها لأصل إلى الجناح الخاص بالرسام ديلاكروا، وكنت قبله تأملت الموناليزا صديقة كل شاعر وعاشق في مدينتي، وتساءلت متعجباً كيف أعطى دافنشي ملامح خنزير أنثوي هذا الجمال البراق . وبدا لي أن ثمة خطوطاً لوجه رجل في عيون موناليزا . كانت الملامح للمرأة الفلورنسية حادة ومشحونة بأمور أخرى لكن العبقرية فعلت فعلها وحولت كل شيء فيها إلى مسحة من جمال غريب ونظرات تبدو في حقيقتها شاذة وتنوم كل من يراها مغناطيسياً، وتجعله يهيم شوقاً، ويبدو لي أن زوج "جيوكندا" لم يكن يحبها كما أحبها دافنشي الذي خلدها في اللوحة فقط ولم يزعم أنها حضرت حفلاً لكونت أو عرضاً مسرحياً لمسرحية جوالة . وفي النهاية تساءلت إن كان دافنشي قد تمنى أن يرسم الموناليزا وهي عارية في الحمام؟

المهم، دعونا من موناليزا ففي الجناح الخاص بديلاكروا اكتشفت متعة سفري فحال وقوفي أمام لوحته المسماة "ساردانابال" تلاشت كل رؤى التأمل التي كانت أيقظت حواسي المتعبة من الوقوف أمام طوابير الجمعية وتصليح دفاتر الإملاء لطلبة الصف

الثاني الابتدائي . إذ ربطت ما رأيت بقصيدة بايرون عن اللوحة . وها هي في ذاكرتي قصيدة بايرون وعيني قاصة"موصلية"، تعرفت إليها في"ملتقى قصة الحرب الأول". وكتبت عنها أن هذه الآشورية كانت سمراء وقد أغرتني ابتسامتها ونظراتها المشفوعة برغبة التعرف إلى هذا الجنوبي القادم وربما نتشارك في ألفة حمام واحد بدلاً من اثنين، سومري وآشوري، وكنت لا أحمل في حقيبتي سوى خجلي ومنشفة قديمة وأوراق بيض. حيث تذاكرت معها ليلة كاملة، وكنا نتحدث عن أصولنا رغبة منا في صهر الماضي في آنية واحدة، وفي استفساراتي اكتشفت أن للقاصة"ن "جذوراً سومرية وأنها بقية من أسلاف أتى بهم الآشوريون من الجنوب فكنت سعيداً، وقرأت لها قصيدة بايرون وقلت:"إن ساردانابال كان عليه أن يعيد أجدادك مع محظياته وعائلته عندما قرر ترحيلهم إلى بابل عبر نهر دجلة، ورغم هذا وجدتك".

قالت مضيفتي وهي تشاركني بوعد من عينيها متعة طقس الحمام الباريسي:"وجدت سومريتك، والآن وجدتني .الفرق أنها سمراء وأنا أشع بياضاً. إن رغبت سأطلي وجهي لأكون مثل تلك التي هام بها ملك آشور وتخلى عنها في محنتها".

قلت:"ولكن عينيك ستظلان زرقاوين، وأمي تخشى الأزرق لأنه يمت بالصلة إلى الحسد".

ضحكت وقالت:"ماذا أحسد فيك ملايينك، أم بدلة المودرن التي ترتديها؟".

وكنت أرتدي بنطلوناً جاهدت كما عنترة لنيل عبلة كي أحصل عليه من الجمعية، وعندما تسلمته وجدت ثقباً في مؤخرته، وحين طالبت باستبداله قالوا إنه خرج من المعمل هكذا، فرضيت به حباً بالهواء الذي يدخل وينعش ساقي النحيفتين اللتين تصلبتا الآن وهما تتذكران أيام الفقر والضياع على الفراش الوثير في شقة جرمانيتي التي قامت من لحظتها ودهنت كامل جسدها بزيت أسود يبعث بنفاذية قوية رائحة الصندل الذي خلق في رأسي صداعاً قوياً، ولأنادي على أمي لتشده بعصابتها، لكنها ليست موجودة الآن إنها هناك وهي تظن أنني الآن أمسك بقوة شباك الولي الذي دفن في باريس، ولو تدري أنه جسد امرأة من الشمع وفي حمام نسائي، لتخلت عن أمومتها وما نطقت باسمي حتى مماتها.

وهكذا تغيب عن الوعي كمن ضربت الشرطة رأسه بهراوة. امرأة وعطر وأبخرة ساخنة من دوش ذهبي تذهب بكل صداع، وهو ما كنت أتمناه دائماً .

كان جسدها بنعومته الطرية يعني لك عودة إلى الوراء بدولاب الزمن السحري لترى المشاهد الخلابة لأجدادنا وهم يقودون عبر سهولهم الخضر الأسرى من أعدائهم، وأمام لوحة ساردانابال. كان المشهد العظيم يخيم على ذاكرة الجنوبي وقد خلط الشمال الآشوري سوائل بأخرى ليشرب خمر التحسر على ما أبقى التراب الوطني من جبروته بعد أن أحرقت أور بنيران عيلام .

قالت، وقد قضيت معها ليلة لا أعرف كيف أصفها. ليلة خلط

فيها الزيت بالشهوة، بشهيق أنثى من الكريستال، رد عليه زفيري فقيراً جنوبياً شربت منه حتى الثمالة، وكانت تقول بفرنسية لم يترجمها جليسي: "هل من مزيد"؟

قلت وقد أعياني اللهاث وسخونة البخار وشذى عطر الشمبو الذي لم يشم أنفي بحياتي عطراً مثل عطره: "لقد منحتك كل ما لدي".

قالت: "أنت لست سومرياً إذن".

- "بالضبط لست منهم رغم أني سليلهم، والسبب أن الغرب فرض علينا شروطاً قاسية، أن نضع سيوفنا في المتاحف ونتجهَ إلى النوم مع نسائه".

ولكنني خبأت سيفي، وها هو يدوس أحشاءها بقسوة منتقم. وهكذا تعود إليها وكأنك لم تأكل لحم الدجاج في حياتك، وأنت الديك الأحمر الذي شد عرفه بأمنيات صياح الصباح لأنثى علمته مودة الحب الأولى في الطفولة القديمة. وها هو الشعر الأصفر يبحر في شواطئ صدرك ويسير في غابات كثيفة ليكتشف أعشاباً نادرة وحشرات ملونة برغبة اللسع، وعندما تلسعني أستيقظ من غفوتي لأرى لوحة ساردانابال أمامي ممدداً ومن حوله العذارى وفي عينيه تشع رغبة ملك غلب على أمره وبالرغم من هذا صنع جبروته الجديد من أجساد نساء فاتنات . والعاريات حوله يمتن برغبتهن ورضا عينيه اللتين تشعان بلا أبالية مشابهة لتلك اللاأبالية التي ملكتها محظيتي بعدما شبعت من قمح

جسدي المخلوط بنسب معلومة من الشعير والنخالة، ورغم هذا كان لذيذاً كما عبر عن هذا لسانها وأسنانها وانتعاشها الماجن أول ساعة فجر عندما أعلنت أنها تريد أن توصل الليل بالنهار في هذا الاستحمام الدافئ، ولنؤجل ذهابنا إلى اللوفر هذا اليوم.

كان فطوراً سريعاً أعدته هي، وقد فاضت بدلال المشتهيات، وهي تنقل جسدها العاري بين مطبخها الصغير ومخدع الحب، لتعود ثانية إلى رياضة الارتماء في الأحضان ولأتخيل مرة أخرى "مليكي الآشوري" وهو يرمق جواريه المدميات، فأستغرب إن كان الموقف حقيقياً. ولديَّ الآن صورتان مختلفتان عن مليكي الحزين. قصيدة بايرون ولوحة يوجين ديلاكروا التي حملت الرقم ٩ في جناح الرسام والتي أنكر وجودها صديق لي كان قد زار باريس عام ١٩٧٨ عندما تحدث لي عن جمال تلك اللوحة في ألبوم يمتلكه، ولي أن أقدر أن الملك الآشوري لم يكن بتلك السادية التي صورها ديلاكروا حتى قادتني ماريا لوبيز مضيفتي إلى اللوفر في صباح باريسي دافئ لأقف وأتأمل وجهَ آخر بني آشور فقفزت من بين شفاه النساء القتيلات بخناجر فرسان الملك مقاطع من القصيدة الجميلة التي كتبها اللورد بايرون، وكلماتها تتحدث بلسان الملك الآشوري: كم أحببت .. كم أبدعت خيالاً مارست حياتي فيه لم تفلت مني لحظة بغض بالعشق الخلاق أما الموت فليس غريباً، هو أهون ما نتخيل.

إنه الموت الطبيعي ذاته عندما كانت هناك طائرات فوق

مدينتنا، ولي أن أربط تلك الكلمات بموت واحد من أصدقائي وكان رساماً بارعاً، "هذا الصباح نشر الموت أجمل أرديته." كنت منشغلاً بقصيدة بايرون ومتذكراً في الوقت نفسه الآشورية التي تعرفت عليها في قاعة العرش في قصر نينوى أيام منتدى قصة. كنت أحاول أن أجاورها سرير أمي، ولكنها ذكرت في رسالتها الأخيرة أن أمراً إدارياً وعربات ملكية بخيول مطهمة نقلتها للتدريس في ناحية فايدة، وأنها ستكتب إلي في كل يوم رسالة وستفكر بإرسالها مع رسل أمراء سومر الذين أتوا يباركون ساردانابال على ملكه الجديد .

في خضم هذا الاستذكار اللذيذ والاستمتاع بملامح آشوريتي نقل إليَّ النبأ الفاجع بموت الرسام جمال كامل ناهض، صديق الدراسة والطفولة وهذا الخبر أوقع على رأسي صاعقة من الحزن فقد كلفته قبل أيام أن يتخيل ما صوره بايرون في قصيدته ليرسم مأساة الملك الآشوري ولأقارنه بما رسمه ديلاكروا وقد وافق .

التقيته في السوق فتحدث لي عن ضرورة أن تكون اللوحة رصاصة تطلق ألوانها على الطائرات التي أرادت أن تهدم قيصرية القماشين، حيث فكر برسم الضجيج الطفولي لواحد من مساءات قبل العيد لكن الطائرات قصفت المسقفات ورصاصة ما ثقبت صدره بعد أن تحدث إلي عن خطوط الملامح الأولى لوجه ساردانابال، فمن غيرُه سيلبي لي رغبتي بمقاربة القصيدة باللوحة؟

قالت ماريا لوبيز: "الموت في الشرق هو أن تكون دائماً بموازاة

السحب، حيث يقدر للروح أن تسافر إلى ما كانت تحلم به ومن ثم تهبط على كف امرأة ما قطرة ماء باردة.

- تفسير جميل، إنك تفهمين الشرق جيداً.

- خاصة عندما يموت شعراؤه ورساموه بالرصاص.

ملكني الظن أن ماريا لوبيز تكون سليلة من جلبهن ساردانابال من وراء أرمينيا حيث قالت الألواح: إن مع الأحجار الكريمة تجلب النساء ذات العيون الزرق ليصبحن حاملات كؤوس نذرية وعازفات قيثارة.

فهمت ظني، وقالت وقد دارت أحشاؤها بارتعاش مع ساقي المتلهفتين إلى المزيد: "قد تكون جدتي هناك، وهذا لا يهم ولا يشعرني بهزيمة. أنا منذ أن قرأت ألف ليلة وليلة في الثانوية تمنيت أن أكون جارية لأمير شرقي، ولكنك أمير مفلس، هذا لا يهم. إن شهريار مفلس ونشط خير من ألف مهراجا لا يحسن سوى الشخير والاستعانة بالأعشاب لتتصلب ساقاه . إن العري يخيفهم، يجعلهم يرتعشون ويغطون رؤوسهم بوسائد الريش. وفي حماماتهم التي كل جدرانها ملساء ومن ماس حقيقي يرتعشون من الخوف حين تكون أمامهم امرأة عارية.

وسط أحشائها تفتحت نوافذ الرؤى وسكن الحزن خيال الملك الآشوري الذي لوح بعلامة النصر، وهو يراني أمتطي مهرة غريبة، عالجت في جسدي آلام القفص الصدري، ومسحت الملوحة عن ركبتي، وأزاحت الياب الذي امتد في فمي لتصير قبلاتها خبزاً

وأن يشتري لي دمية كان قد تمناها لتكون عروسه.

في اليوم التالي، لم يكن نهوضنا مبكراً . امتد بنا سحر الجسد إلى الظهيرة، وذهبنا إلى المساء. وجاء الليل.

قلت: "كان ينبغي أن أذهب إلى اللوفر لأكمل مشواري مع أجدادي لأن الأسبوع سينقضي وسأعود إلى بلدي، وربما لن تتوفر لي فرصة العودة".

قالت: "في فرنسا أكثر من مليون أجنبي يقيمون بصورة غير شرعية. كن أنت واحداً منهم، وأحسن إليَّ بأن يكون جسدك قربي".

- وعملك؟

- إلى الآن ألغيت رحلتين، وسألغي ألفاً أخرى. -في جسدك أرى مدناً لم أرها في حياتي فلماذا أسافر إذن؟".

تأملت جسدي الأسمر كسمرة خبز بطاقة التموين .لم تكن تثبت على صدري شجرة برتقال. كان بدلاً منها حبيبات لحساسية مزمنة، وفي ساقي لم تكن هناك نيونات وناطحات سحاب. كان هناك شعر جاف وجلد مصفر من كثرة ما تناولت من الخضروات. تأملت وجهي، كان شاحباً، ولم يكن فيه أثر لأبراج بابل أو أهرامات الجيزة فأين المدن الجميلة من هذا الجسد؟

وعدت مرة أخرى لأقول هو سحر الشرق وحماماته المدهشة.

وثالثة ورابعة وخامسة، تستعر الأجساد ومع نيران البخار والصابون المعطر والأصابع النحيفة كما سيقان الورد الخالية من

الشوك تتجمد ذاكرتي الجنوبية، وأنسى أن لي أماً تنتظرني لأعود إليها محملاً بقطعة قماش، جميلة تتقافز بها أمام جاراتها في المحلة.

واليوم .. تجاوزت إقامتي في باريس ثلاثة أشهر، وأعترف أني خلالها زرت اللوفر عشر مرات ولنهارات كاملة، وأقمت مع ساردانابال صداقة متينة، وعرفت من خلالها أسراراً كثيرة لم تذكرها الكتب عن سقوط دولة آشور الهائلة، فالملك لم يكن سبباً في السماح للأقوام الجبلية أن تغزو آشور. لقد كان الغزو من الداخل. أولئك الأمراء الطامعون بمجون السلطة والمال، وعندما بكى ساردانابال حزناً على إحراق نينوى، سقطت دموعه الزجاجية على أرضية المتحف المرمرية فكان صدى عزف جميل لقيثارة جاريتي السومرية تلك التي وجدتها صدفة في واحدة من أماسي الثقافة في الموصل. وأمامها انحنيت لأتأمل في خبايا الصدر الأسمر، زوايا أحلامي المليون وأنا أتمنى أن تموت الحرب ويعود الأمريكان إلى بيوتهم، وساردانابال أعطاه مدير المتحف منديلاً ليجفف دموعه، وليعود صامتاً وسط لوحة ديلاكروا. ليفكر بدعوة محظياته إلى الدخول معه ثانية إلى حمامه الملكي.

بعد أن شبعت مضيفتي من جسدي، تذكرت أهلي، وذات صباح عندما كانت هي نائمة، حملت حقيبتي ذاتها التي قدمت فيها من بلدي وبما تبقى من فرنكات قليلة معي اشتريت لأمي قطعة قماش صوفية وإلى أقرب مكتب للهجرة سلمت نفسي،

مدعياً أنني فقدت ذاكرتي، ولا أدري في أي يوم جئت إلى باريس، وعندما قرأوا جواز سفري اكتشفوا كذبتي. أحسست بأني مرمي في عنبر الشحن في إحدى الطائرات الذاهبة إلى الشرق الأوسط حيث سأسلم إلى سلطات بلادي، ولأنتظر من كفلني، ولأجد أمي وهي تنظر إلي بغيظ ودلال، وقد جفت عيناها من النواح، لكنها تكاد تطير من الفرح لأنها وحدها التي وفيت لها بالوعد، وعدت لها بهدية.

الفصل الخامس

يوم دخل الأمريكان مدينة الناصرية (٣٦٠ كم جنوب بغداد) في الغزوة الثانية، قال أحدهم: إنهم يريدونك فاذهب إليهم قبل أن يأتوا إليك.

الغريب، في الوقت الذي كانت الأباتشي تمارس سحر اليوغا بقنابلها العنقودية على بيوت وشوارع المدينة. كنت أعيد قراءة أوراق العشب لوالت ويتمان.

كان والت ويتمان يغرز ذكورة الخروج عن المألوف في جسد بولوني جاء للتو مهاجراً من وارشو، وكان يشرب الخشخاش من غلايين الهنود الحمر، وكان يعبئ وعي الشعر لديه بإباحية الموسيقى، وهو امتداد لفهم أدغار ألومبو الذي يقول: كآبتي الأمريكية صنعتها بريطانيا.

بريطانيا لا زالت تتحاور بدباباتها مع البصرة المحاصرة ...ولا زال علي المجيد يأكل الهمبركر الجاهز في قبو تحت بناية مديرية أمن البصرة . وبالمناسبة، كانت القوات الأمريكية في اليوسفية على مشارف بغداد، وميناء أم قصر الذي تحلم الكويت بظله ما زال يقاوم.

في الناصرية صنعت الآلهة بذرة النبوة. وكانت أور تستعجل صناعة الرؤى من خلال قبلة على فم عشتار أو من خلال لحظة استحمام برذاذ العطر في غرفة من قصب لواحد من رعاة برية أور هبطت عليه من العلا لتقول له: أنا أريدك فخذني إليك واغسل جسدي برذاذ المطر أو موج النهر، أو لعاب شفتيك.

وكانت سومر تعتقد: أن الفهم الآخر للموجود لا يصنعُه ملكٌ نسيهُ زمانه واختبأ يشرب القهوة المرة في بيت بأطراف بغداد. بل ربما ملك مثل شولكي يوم وضع الحرب وراء ظهره وراح يداعب شهوة المرأة الجرمانية بلهفة الملك المجرب، لا برغبة من يحب أن يسبح فقط في دخان السيجار الكوبي.

كانت سومر كما يقول عنها صومائيل كريمر: افتضاح اللوح الذي بمقدوره أن يرينا القادم من الزمان، والقادم: سيكون دمية لرجل ببدلة مرقطة . أتخيله، سلفستر ستالون مثلاً، وقد عهد إليه تخليص الأسيرة الأمريكية جيسيكا لنغ.

في سومر العاطفة الأممية سلة ورد . وأنا أعيد قراءة قصيدة "أغنية نفسي" لوالت ويتمان . أطل علي الرجل ويتمان من خلال صندوق كاميرا شمسية لأراه مثلي يحن إلى تلك الأمكنة التي تصنع المشاركة، لكنه كان يود مشاركة ذكورية بالرغم من أنَّ الله صنع حاجة الذكر إلى الأنثى وما عدا ذلك نشاز، ولأن أمريكيته نقية مثل رمل نيفادا رجاني أن أزور المجندة جيسيكا في المستشفى.

قلت: هي مارينيز؟

قال: مستخدمة إدارية في مفرزة آلية.

كان مستشفى الناصرية الذي وضعوا فيه المجندة الأمريكية الجريحة جيسيكا لانغ يسمى (مستشفى صدام) سابقاً لا يبعد عن بيتي سوى خمسمائة متر، ولأنك عندما تعد شاعراً عليك أن تفي بوعدك، وإلا سيكون مصيرك مصير كافور مع المتنبي .

ذهبت إلى المستشفى بحجة شعوري بمغص كلوي حاد. كان المعاون الإداري للمستشفى صديق طفولة ودراسة.

وجدته في ارتباك وفوضى، فقد تحول المستشفى إلى مركز قيادة للبقية الباقية، من يأس أن يتكرر سيناريو ١٩٩١، ثم يبدأ الحساب العسير.

لقد كان ثمة أمل، لهذا فثمة مقاومة، رغم أن الغول الأمريكي بدا جاداً هذه المرة، عرفت ذلك منذ أن طبعوا الوجوه والمناصب والرتب على ورق اللعب : تمنيت وقتها أن تكون الورقة السادسة والخمسين تحمل صورة شارون ستون لتكون أسيرتي لليلةٍ واحدة وأجلبها إلى حمام أبو ليرة وأريها كل تعاويذ السحر السومري، فلقد عذبني انفراج ساقيها على طاولة القمار في بار أمريكي في فيلم أكشن يدعى السريع والموت. حتى أجعل وداد تموت من غيرتها وتصرخ: ها أنت مع جرمانية أخرى، قل لي بالله عليك، لماذا لم تلدك أمك في أوربا.

دلفت إلى داخل المستشفى، قال أحد أفراد الحماية: إلى أين؟

قلت أريد المعاون الإداري، فأنا ابن عمه.

(في ورقة لم يضعها أدغار ألن بو في قنينة ويرميها في نهر الميسيسيبي يقول :ابن عمي الأول، سرق ابنة عمي الثاني وغرق معها في حمام لذته. إذن أنا أمريكي بائس).

قال: انتظر وأنا أنادي عليه . جاء المعاون الإداري، نظر إلي مبتسماً وقال: لست مريضاً ..جئت لترى جيسيكا؟

قلت :في التاريخ مشاهد لا يمكن تخيل حصولها والتقاط صورة مع جيسيكا ندرة تقول عنها ألواح سومر :تأتي عندما ترمش لنا الآلهة بأجفانها . ثم أريد أن أطمئن عليها، ربما لشعوري أننا عندما نقترب من أجفانها أو أي مكان آخر يصبح الأمر حجة وتصير مدينتي مثل هيروشيما.

قال مبتسماً، ومازحاً: هل أرسلتك CIA؟

قلت مرعوباً: لا والله أرسلني والت ويتمان.

قال: ما عليك منها، لقد تعدت المرحلة الحرجة وهي بخير . من الصعب أن تصل إليها، إنها بالنسبة لهم صيد ثمين.

كانت جيسيكا مخبّأة في طابق ما، وكانت رغبتي أن أنظر إلى نومتها الجريحة، وفي داخلي يشتعل غيظ لا ينتهي مما يجري . وكافتراض للحظة الرغبة بالدخول إلى غرفتها المحصنة، كانت تعيش في داخلي اختلاط لا ينتهي من مشاعر الكره والرحمة. كان الموقف كله يرتدي قميص اللبوس، شعور بزهو لإلقاء القبض على مجندة.

(مع الأسف، إنها امرأة وليست رجلاً).

اليابانيون يقولون في أطيافهم :حرب النساء يعلن نفيرها في الأسرة أو في الحدائق أو في حمامات البخار.

جيسيكا لانغ، حظها أنها أتت حتى ربما بدون تصور للطريق الذي اندفعت فيه، بعد أن فتح الرتل المجوقل فتحة في خاصرة الحدود العراقية ـ الكويتية، واندفع سيراً على أسفلت الخط السريع مندفعاً إلى الناصرية، من حقل صُبه النفطي الذي يكاد يكون الحافة الجنوبية لحقول نفط الرميلة وأقربها إلى الخط السريع الواصل بين الناصرية والبصرة.

جيسيكا لا تعرف شيئاً عن الناصرية، والآلية التي كانت تقلها وقعت في كمين على الشارع العام.

الحرب باندفاعها المرتبك وزمجرة دباباتها أنست جيسيكا أطراف المدينة.

الإعلام والتوهم حين رأى الترجمة الرديئة للأسرى من رفاق الأمريكية التي حصدت من جرحها ما حصده الممثل أنطونيو كابريلو من تمثيله فيلم تايتانيك.

قال :الآن بدأ نصرنا.

كان الأطباء يذهبون ويأتون، كم هي مهمة جيسيكا!

كم هو مهملٌ هذا الطفل الذي أصابته قنبلة عنقودية في خاصرته، فلم يعد له فراش يصلح للنوم، ولكي ينام براحته في عمره القادم، إن بقي له عمر، عليه أن ينام وهو معلق في الهواء

مثلما خفاش!!

في الحرب ..تتعدد الأسباب والموت واحد نحن لسنا في غابة الأمازون كي يكون البقاء للأصلح،بعد هذه المعركة العنيفة .. اكتشفت أن البقاء للقدر.

إذن القدر هو من أنقذ جيسيكا، وعليه أن ينقذ المدينة . رغم هذا رأسي محملٌ برغبة لرؤيتها.

مر مترجم قريبي، قال أيها الأديب: واحد من الأسرى ولد في ذات المدينة التي ولد فيها ألفيس بريسلي.

قلت: في ممفيس؟

قال: لا أعرف ولكنه يشبهه!

كان يمزح .

قلت للمعاون الإداري: هل تريني جيسيكا؟

قال: أتمنى ولكنني لا أستطيع.

في الليل كان الإنزال الخاطف على المستشفى.

الناس عرفت أيقونة هذه الحرب، وما عادت تقاوم، لو جاءت حينها مدرعة واحدة، لخلصت جيسيكا، ولكنها البنية الأسطورية لرؤى أيزنهاور القائلة: في الصحراء، حارب كأنك محاصر في بيت، وفي البيت حارب كأنك تقاتل في صحراء.

وتماماً مثلما يفعل الجنود في أفلام فوكس تجول سلفسترستالون في أروقة المستشفى بطريقة سينمائية متقنة، وأنقذ جيسيكا.

أخذوها بطائرة، وكان في نية طاقمها الطبي العراقي قبل خطفها بساعة أن يوعز إلى واحدة من الممرضات لتدخل معها الحمام وتغسل جسدها من آثار دماء يابسة لبعض الجروح التي أصيبت بها أثناء الأسر.

أتخيل جيسكا لانغ وهي في الحمام السومري، وكيف يمكن أن تتقابل هواجس الذات السومرية مع أخرى أمريكية لم تأت هذه المرة مع معاول التنقيب والأجساد الأنثوية المتلهفة لمضاجعة الملوك حتى وهم في قبورهم، بل جاءت ومعها الدبابات وأدوات الهدم والإنزال وصواريخ البوارج.

مما تقدم، ومما تأخر، تقف خواطري، عند حدود الخط الأحمر، خط ظل يتأرجح أمام عيون الناس.

اللبوس في الرؤية صار مشكلة الذاكرة في هذه الأيام!

لا تقولوا :إن واعياً للمشهد سيرتدي قميص ألفان هاوزن ويتحدث عن سيناريو صناعة جنة دلمون جديدة، وأن الموز الصومالي والذهاب إلى مكة يصيران بعدة قروش.

الصينيون يقولون: القروش دون ابتسامة، تصير حصى..

يا إلهي قدر أور أن تكون وطناً لافتراضات الآخرين. الفضائيات تعبث، والسكارى يعبثون، الصراصير تعبث، والنفايات تعبث، والبقايا الباقية من فدائيي الحكم الغائب يعبثون بدموعهم وبنادق فرغت شواجيرها من الرصاص.

وأنت أيها المهيمن على سحر المفردة، النائم تحت عباءة النبي

إبراهيم (ع)، النازف من شهوة فخذيك عسل الفقر وعرق الحمامات الغزلية، الصاعد، النازل، الشاهد، والشهيد، السومري البسيط: تُرى أي قدر ينتظرك!

(المارينز لا يهجمون إلا والمربيات في عدتهم العسكرية.

مشاة الفرقة العراقية الحادية عشرة .. دافعوا عن المدينة وفي عدتهم مواعيد التجنيد.

المارينز موتهم يقاس بآلاف الأميال.

موتنا يقاس بالأشبار..

ربما لأنهم يموتون في المنافي..

ونحن نموت في بلادنا؟).

دخل المارينز المدينة . كافافيس في قصيدته الموسومة (في انتظار البرابرة) يقول: والآن سوف لن يكون هناك برابرة ..ما الذي سنفعله ..لقد كانوا بعضاً من الحل؟

من يكمل لهذا الشعب مسيرته إلى دلمون، ما دام جلجامش قد خدعته الأفعى.

لا جديد في المشهد منذ أعوام، كل الذين يتحدثون، كأنهم يكتبون الإنشاء في امتحان البكالوريا.

تذكروا ذلك الإنشاء الأزلي الذي لا يكف المدرسون عن طلبه منا كل عام (البقرة سوداء، لكن حليبها أبيض).

المتشائمون يقولون :انقلب الأمر، البقرة البيضاء وحليبها أسود.

أنا أحب بابلو نيرودا، وهو يقول :بسبب تفاؤل الفراشة يصير الربيع نصف العام.

أنا متفائل، متفائل لأني أبحث في روح القصيدة عن ذات سومرية ترفض أن تهجر نفسها، أقول لها: كفاك كنتاكي ! أو انتظري؟ أخاف عليك، لا زال المشهد يرتدي ثياب يوليسيس، أيثاكا تنتظر، دعوها تنتظر، لا نريد أن نفقدكم بسيارة مفخخة!

وهكذا يحل الأمريكان علينا ضيوفاً ثقلاء، بوجوه حمر تنقط دماً، وبدلات صحراوية.

اختفت المقاومة، المليشيات الحزبية ذهبت إلى بيوتها. الجنود الأمريكان يمشون بدوريات راجلة، ويبتسمون.

قال أحدهم: مدينتكم أجمل من كابول، وأنتم لا تشبهون الطلبان، لم نر لحية (ابن لادن) ، ليس هناك بيوت طين، ولا نساء ببرقع، الأطفال يلتقطون معنا الصور التذكارية، نرجو أن يدوم هذا!

قلت للمترجم: ربما هذا ربيع عسل؟ وبعدها يأتي التصحر.

قال المترجم: لن أنقل كلامك له، لأنني لا أريد أن أعكر مزاج منتصر.

أزعجتني تلك المفردة (فاكتوري) ، كانوا يكررونها وهم يتجولون في شوارع الناصرية.

في عشرينيات القرن الماضي، تجول في ذات الشارع ولنصف

ساعة (ليوناردو وولي) مكتشف مقبرة أور الأثرية، كان بصحبته الأثري (ماكس مالوان) زوج الروائية الشهيرة (أجاثا كريستي).

كتب وولي عن هذه النزهة القصيرة :إن المدينة تفتح ذراعيها إلى الشاطئ كما يفتح الصباح ذراعيه إلى الشمس .ومن حرها اللاهب أحاول أن أبحث عن حمام أستحم فيه لأشعر بذاكرة جديدة مع هذه المدينة البكر.

لا أدري إن كان الكاتب الأمريكي الذي لم يجد طلبان في شوارع الناصرية، قد عَبرَ مثل هذا التعبير.

المشكلة: أن الوعي بتحمل البسطال الكاثوليكي والبروتستانتي صار فهماً قائماً على أساس أن الحدث التاريخي مصنوع بقدرة لا يُبرر بمجرد شعورك أنك محتل . هذا أمر علينا تجاوزه، فالأمريكان هنا، وإشارة النصر، بأصبعيها المنفرجين كالرقم (٧) لن تعني الكبار شيئاً بقدر ما هي سهم يخترق الفؤاد لأن بلادك التي أوصل الرشيد مجدها إلى شارلمان الإفرنج يلعب الجنود الغرباء بشوارعها كرة المضرب!

الأطفال وحدهم من كان يلوح بهذا الـ (٧) للجنود، فلن يجرؤ عراقي بالغ أن يرسم هذه الشارة في وجه محتل، الأطفال وحدهم فعلوها، لأنهم ببراءة الجوع تصوروا أن القادم هو ميكي ماوس المصنوع في حدائق ديزني لاند.

بالنسبة لي ثمة حسابٌ آخر. سمعت من صديق، أنَّ صديقاً من أبناء الناصرية يريد أن يذهب بغيرته الجنوبية إلى مقر قيادة جيش

الاحتلال (الأمريكان عندما دخلوا المدينة على بركة الله، واتخذوا من متحف مدينة الناصرية مقراً، المتحف أهداه الثري الأرمني أوهانيس كولبنكيان وكان يسمى مستر ٥٪، لأنه يملك هذه النسبة في نفط العراق، إلى المدينة اعترافاً منه بقيمتها الحضارية) أراد أن يخبر المحررين، أن لي مقالاً لبستني فيه رؤى سومر، وتنبأت فيه بوقيعة (مانهاتن) قبل حدوثها بخمسة أسابيع. القصة باختصار: في ٢٠ تموز ٢٠٠١ كان لي عمود أسبوعي في صحيفة الناصرية، عنوانه نقطة ضوء زرقاء.

كانت قناة الجزيرة الفضائية، تظهر ابن لادن فارساً من فرسان عروبتنا التي ضاعت بين سيجار القائد، وإحراج قضية لوكربي.

ففي إحدى مقابلات ابن لادن، قرأت ما في عيون الرجل.

أمر طبيعي في سياق الوقع التاريخي للعلاقة بين ابن لادن وأمريكا، إن أمراً هائلاً سيحدث، بقصد أو بدونه.

كان المقال بسيطاً وواضحاً، قلت فيه: إنَّ الرجل يبدو -من عينيه -أنه يخفي لأمريكا شيئاً.

في سومر كانت الألواح تقول: كي تعرف نية أحدهم، اقرأ عينيه.

(الجلوس في حضرة الروح اختبار يذل الجسد، لكن المتعة أن تكون مثل المؤمن بقراءة الكف يريك صوراً واضحة).

قلت: ابن لادن سيفعلها، وهو كما قرأته في شحوبه

الصحراوي، وأنه يريد أن يصل إلى البيت الأبيض والبنتاغون. وربما يريد أن يمسك أمريكا من اليد التي توجعها (عَدّت هذ العبارة الأخيرة في وثيقة اتهام بمحكمة في مانهاتن، أنني كنت أقصد البرجين الفاجعة!.)...

ويتمان إني أعزيك بضحايا البرجين فربما فراشة من تلك اللائ كن ينمن في لحيتك الكثة، كانت تطير هناك .. تحط عل نافذة من الطابق العاشر.

حدسي أنها كانت تتأمل تمثال الحرية الواقف على ساح المحيط.

الإرهاب، الشعور بالمذلة، توتر العلاقات الحميمة يصنع غيض تكون الفراشات ضحيته..

عذراً ويتمان .. مقدر للفراشة أن تموت على نافذة ببرج مانها ومن تعاسة قدرها أن لا تموت في حمام نساء.

بعد خمسة أسابيع من هذا التوقع الذي صنعته ربما سذ المقالات، جنونها، فنتازياتها، فقبل أن يزورني طيف هذا الم كنت أمتلك النية للكتابة عن ارتفاع أسعار المشمش، وأريد اقترح على وزارة التجارة أن تضع البطيخ ضمن مواد البد التموينية، البطيخ في الصيف، والبرتقال في الشتاء، فأنا أ معلماً، دخل البطيخ وخرج ولم يتذوقه أطفاله.

بعد خمسة أسابيع، جاء (المنحوس سبتمبر) لينقل أنقاض البرجين وينثرها على كابول وبغداد وسائر عولمة الأرض.

تلك الأيام دونتها في مقال محفوظ لدي بعنوان (قصتي مع أسامة بن لادن) ، فالبلوى كما تقول أم سومرية: تأتي من شحة الفيتامين سي في الجسد.

(الفقراء في سومر يصنعون من جوع طفولتهم رؤى المهد أيام كان الجوع كما يقول الشاعر الفرنسي بيار جان جوف :الجوع قاس كما النساء العاريات).

وهكذا أتى الرعب من جديد يرتدي بدلة قتال وضعوا فيها حتى مكيف الهواء، ولأني خضت فيما مضى حروب الجيل لثماني سنوات، ولأن نصاً ينسب إلى سرجون الأكادي يقول: والآلهة الرحيمة معك في غمد السيف أو رقة القلب، فالرعب لن يأتي إليك أبداً.

لهذا التجأت إلى صديقي المترجم، وقلت له :خذني لهم لأروي الحكاية، فثمة من يريد أن يتصيد في الماء العكر.

في ظهيرة كئيبة مثل عيون مفلس، مشت خطاي المرتعشة كعصفور بلّله القطر، لم أخبر زوجتي، لم أخبر حتى نفسي، فأنا ذاهب ربما إلى تحقيق طويل، ربما إلى معتقل، ربما إلى مانهاتن. المجهول الصعب أن تذهب إلى محتل وتقول له أنا بين يديك.

)أيضا ما جرى قصة (ولكن ثمرتها أنني في النهاية لم ألقَ سوى المودة من الذي حقق معي ولربع ساعة فقط.

كان الأمر في نظر الأمريكان حدساً صحفياً يُمكن أن يؤخذ كمنبه إنذار لنية ابن لادن.

اليوم الشهادات داخل الكونغرس عن الذي حدث ما قبل سبتمبر تشتغل على ذات الرؤى التي تحدث فيها كابتن)وايكر (وهو رئيس القضاة في الجيش الأمريكي الموجود في الناصرية والذي تحدث معي بهذا الشأن، وقد حملني شكراً أمريكياً رقيقاً لأنني أتيت وحسمت الأمر، بالمقابل، أهديته ناياً، متذكراً عشتار وهي تخضع لغواية الرعاة فتخلع كل شيء، ومع الناي لوحة زيتية لأهوار الناصرية.

إلى هنا انتهى الأمر ..عدت إلى بيتي.

لا أدري ما الذي يجري في هذا العالم، بعض الأوطان لبست جملة الشاعر الفرنسي آرثر رامبو تلك التي تقول: من رقة الحس ضيعت أيامي.

إذا كنا لا نعرف ما يجري في رؤوسنا فكيف لنا أن نزعم معرفة ما يجري في العالم.

هؤلاء هم صنيعة الظل الذي نراه، وكما يقول سقراط: نحن لسنا ضحايا الفلسفة، أو عنف القياصرة، أو أمزجة أعضاء مجلس الشيوخ، نحن ضحايا ثرثرة زوجاتنا:

(بعضهم سيتحسر ..عندما يكتشف أن مبررات الحروب كثيرة وأكثرها عنفاً كان بسبب خطأ مطبعي..)

أمي فسرت الحرب: ولدي إنها قشرة موز يتزحلق تحتها الشاعر !

وهكذا يعود الدرويش إلى ليله والتهدج وغسل الجفون بتذكر ماء دجلة والفرات وعود إسحق الموصلي وصوت سليمة مراد (آنه من

أگـولن آه وأتذكر أيامي..)

فقد انتهى كل شيء مع المهجر واللجوء والذكريات. .أخذت عفش حياتك وغادرت وطنك تئنّ من أجله كما تئن السفينة القديمة لموج البحر..

لم تعد لك حمامات تغرق فيها مع شجن الحس وشهوة التمني سوى مع ياكو مورو، تستعيد معها أزمنة الموت الذي مشى على تواريخ وطنها، ويمشي عليك الآن..

عارية قربك، لكن المتعة ليست مكتملة كما كانت قبل، يوم كنت يا سلمان تلوك بأجفان صباك جسد كاترين العري، ويوم كانت وداد تمجد فيك الرغبة التي لم يكتشفها أحد بعمرك..

الآن حمامات بلادك صارت للغرباء، وأنت أصبحت أسير طوابير محطات النفي ومنظمات اللجوء وأمنية بجنسية سويدية، هي أبعد منك إلى المجرة عن حلمك القديم، بأن تكون إغماضتك الأخيرة قرب ذلك الحمام السومري الساحر الذي يدعى (أبو ليرة).. وبدلاً من أن ترشك الطائرات برذاذ اليورانيوم والمفخخات، يرشك رذاذ الماء من أكتاف نساء المحلة، وهن ينظرن إلى صدرك العاري، فيما تصرخ وداد مستهجنة:

إنه لي فلا تقترب أي واحدة إليه..

الكاتب / نعيم عبد مهلهل

مواليد العراق ١٩٥٧ /

حائز على جائزة الدولة في الرواية ٢٠٠٣.

حائز على جائزة دار الشؤون الثقافية في القصة الجائزة التقديرية عن مجموعته القصصية (طيور الفاو الجميلة) عام ١٩٧٨.

حائز على جائزة القصة / المرتبة الأولى في مسابقة مجلة المرأة عام ١٩٩٠عن قصة (فتاة الاستعلامات).

حائز على الجائزة الأولى في القصة لمسابقة اتحاد أدباء وكتاب ذي قار عام ١٩٩٤عن قصته (دموع حمزاتوف).

حائز على الجائزة الأولى في القصة بمسابقة الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق عن قصة (كاهنة ديوان الوزارة).١٩٩٥

حائز على جائزة القصة القصيرة في مسابقة اتحاد كتاب العرب / دمشق عن قصته (تفاحة دلمون) عام ٢٠٠٧.

حاز على الجائزة الثانية في مجال الرواية عن روايته (جنكيزخان) في مسابقة مجلة دبي الإبداعية الكبرى /دار الصدى للصحافة والأعلام /٢٠٠٧.

حائز على جائزة العنقاء الذهبية في المجال القصصي عام ٢٠٠٧ التي يقدمها بيت القصة العراقي.

دمشق ٢٠٠٧ /.

- جمهورية السيدة زينب /مقالات /دار نينوى ٢٠٠٧.

- النساء وعاطفة النبي يوسف /شعر /دار نينوى ٢٠٠٧.

- عصافير الشارع المندائي /شعر /منشورات اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر /دمشق ٢٠٠٨ /

مدير تحرير مجلة الأهوار الفصلية الصادرة عن وزارة الموارد المائية العراقية.

يكتب عموداً يومياً في صحيفة الزمان وينشر مقالاته الأدبية في المجلد الثقافي ألف ياء.

ينشر قصصه في مجلات العراق والعالم العربي.

يكتب مقالاته النقدية في موقع جهة الشعر. ويكتب نصوصه الشعرية والقصصية ومقالاته في الكثير من المواقع الإلكترونية.

عضو الاتحاد العام للكُتّاب العرب /عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين.

عضو إتحاد الصحفيين العراقيين.

يقيم حاليا في مدينة زولنكن / ألمانيا.

أيقنت أن الرواية العراقية لم تزل بخير وانا اقرأ (حمام نساء في أور) آخر مابدعه الكاتب العراقي نعيم عبد مهلهل، حيث يتماهى الحاضر في روح الماضي، سبعة آلاف سنة مسبوكة على هيئة أساطير قديمة وحمامات ملوك وقلاع حصينة ونساء يعزفن على قيثارات مازالت في بطون المتاحف. الرواية تحكي عن المطمور من تاريخ بلاد مابين النهرين، وقد اخذ المؤلف فكرة الحمامات، عالم الغرائز المكبوتة التي تبحث عن مفتاح ينفع مع أقفالها، عالم المرأة المغلوب على أمرها ،مع المرأة التي لا تغلب، مع المرأة التي تخاف من جسدها أن ينقلب عليها ويأخذ زمام الأمور في أن يفعل مايشاء ليكون بعد ذلك خارج السيطرة.

الحمام، الصورة الممنوعة وراء الحيطان الذكورية، هي نفسها الصورة المفضوحة برغم التكتم عليها، صورة حواء في أول يوم نزلت فيه إلى الأرض، صورة (الخالة) التي اغتصبها طفل (ماريو بارغاس يوسا) في مديحه لها، صورة مارلين مونرو وبريجيت باردو و هند رستم وصوفيا لورين، التي كنا نراها على دكة الطفولة وفي أول الصبا، صورة الرعشة والقشعريرة عندما تغلق الباب على طفل سينام في أحضان امرأة في أول لحظة سيغادر فيها البراءة.

فضاءات للنشر والتوزيع
فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس:٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٠٨٨٥
dar_fadaat@yahoo.com

9 789957 300968

SERIOUS®
Design